السماء ، وذهاب ضوء الشمس ، والقمر تبع للشمس فى ذلك ، وانتثار الكواكب وذهاب نورها ، وتسيير الجبال ، وطغيان الماء الملح على الماء العذب حتى تصبح الأرض ماء ، وحمل الأرض والجبال ودكهما دكة واحدة ، الى غير ذلك مما ينتاب السماوات والأرض ، من ملابسات ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود ، مما أشار اليه قوله تعالى فى سورة ابراهيم : «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار » .

وهذه هى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . الملك اسم جنس اى الملائكة(١) فان قلت : ما الفرق بين قوله : والملك وبين أن يقال : والملائكة ؟ قلت : الملك اعم من الملائكة . الا ترى أن قولك ما من ملك الا وهو شاهد اعم من قولك ما من ملائكة(٢) والأرجاء الأطراف والحافات والنواحى(٣) والجوانب(٤) الواحد رجا مقصور . يعنى أنها تنشق وهى مسكن الملائكة فينضوون الى أطرافها وما حولها من حافاتها(٥) وعن ابن عباس يقول والملك على حافات السماء حين تشتق(٦) والأرجاء : النواحى والأقطار بلغة هذيل . واحدها رجا مقصور ، وتثنيته رجوان مثل عصا وعصوان(٧) فوقهم : أى ان حملة العرش فوق الملائكة الذين فى السماء على أرجائها(٨) .

واختلف فى معنى العدد ثمانية : فقال بعضهم : عنى به ثمانية صفوف من الملائكة ، لا يعلم عدتهن الا الله . وهذا رأى ابن عباس والضحاك .. وقال آخرون : بل عنى به ثمانية أملاك(٩) وعن

---

(١) تفسير ابن كثير ، ٤/٤١٤ .
(٢) الكشاف ، ٣/٢٦٤ .
(٣) انظر تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٧ .
(٤) الكشاف ، ٣/٢٦٤ .
(٥) الكشاف ٣/٢٦٤ .
(٦) تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٧ . وانظر البحر المحيط ٨/٣٢٣ .
(٧) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٥ .
(٨) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٦ .
(٩) تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٧ .

الحسن : الله أعلم كم هم . ثمانية أم ثمانية آلاف(١) .

وينبغى أن يكون للقول « ربك » خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، أبلغ الأثر فى تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام . ومن حق كل أحد أن يفهم أن هذا القول « ربك » كأنه موجه اليه شخصيا .

وهذه هى آخر آيات القسم ، قال تعالى : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . هذا هو الهدف الأبعد . الحساب يوم القيامة فالثواب فى الجنة أو العقاب فى النار . والعرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة . شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله(٢) « وتعرضون هو جواب قوله . فاذا نفخ . فان كانت النفخة هى الأولى فجاز ذلك ، لأنه اتسع فى اليوم فجعل ظرفا للنفخ . ووقوع الواقعة وجميع الكائنات بعدها . وان كانت النفخة هى الثانية ، فلا يحتاج الى اتساع ، لأن قوله فيومئذ معطوف على فاذا ويومئذ تعرضون بدل من فيومئذ وما بعد هذه الظروف واقع فى يوم القيامة(٣) .

وخافية بمعنى خفية(٤) والمراد كل سريرة وحال كانت تخفى فى الدنيا بستر الله عليكم(٥) .

والشىء المهم الذى يبدو بوضوح فى القسم ، هو مجىء القول : يومئذ فى كل من الآيات الأربع الأخيرة ، مما هو دليل على عناية هذه السورة الكريمة ، بذلك اليوم المجموع له الناس المشهود . وضرورة استعدادهم له وأخذ حذرهم منه . قال تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٦٧٤٥ والكشاف ٢٦٤/٣ وانظر البحر ٣٢٤/٨ .
(٢) الكشاف ، ٢٦٤/٣ .
(٣) البحر المحيط ، ٣٢٤/٨ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٧ .
(٥) انظر الكشاف ٢٦٤/٣ والبحر المحيط ، ٣٢٤/٨ .

القسم السادس

القسم السادس :

قال تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون ».

هذا القسم يتكون من شقين يتحدث أولهما عن حال المتقين يوم القيامة وثوابهم . ويتحدث ثانيهما عن حال المجرمين وعقابهم . فمع أول الشقين . لقد أشار القسم السابق الى بعض ملابسات يوم القيامة ، ابتداء بالنفخة الأولى ، التى تميت بارادة الله تعالى الأحياء جميعا ، وانتهاء بالحساب . وها نحن أولا،فى القسم التالى أمام المتقين الذين يعطون كتب أعمالهم . والمجرمين الذين يعطون كتب أعمالهم . وشتان ما بين طريقتى الايتاء والأخذ بشأن المتقين والمجرمين .

وبما أن الناس يوم القيامة ينقسمون الى هذين الفريقين ، وبما أننا أمام الفريق المؤمن ، وسيكون الحديث قريبا عن المجرمين ، فمعنى هذا أن الترابط بين الأقسام غاية فى الوضوح والقوة . ومعنى هذا أنه يستحسن الاشارة ابتداء الى ما بين القسمين من تلاؤم صوتى ، امتدادا للتلاؤم المعنوى أو الترابط المعنوى . ويمكن القول أن بين هذين الشقين اللذين يتحدثان عن أناس يختلفون فى الصفات ، مما نجم عنه الاختلاف فى المعاملة والجزاء ، نوعا من التشابه الصوتى البعيد المدى الخادم للمعنى أولا وأخيرا . وتفسير ذلك أن الآية الكريمة الأولى فى كل من الشقين تتكون من وحدتين صوتيتين متشابهتين . آية الشق الأول هى : « فأما من أوتى كتابه

بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » . وآية الشـــق الثـــانى هى « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه » .

هذا الى انتهاء كل بلفظة « كتابيه » وبين بقية الآيات فى الشق الأول وما يقابلها فى الشق الثانى تشابه صوتى بعيد المدى . فالآية التالية فى كل تنتهى بلفظة « حسابية » فى الأول : « انى ظننت أنى ملاق حسابيه » وفى الثانى « ولم أدر ما حسابيه » والآية التالية فى كل تنتهى فى ذات الصيغة الصوتية التى تنتهى بها الآيات ، مضافا الى ذلك أن الأولى تنتهى بلفظة « راضية » والثانية بلفظة « قاضية » قال تعالى : « فهو فى عيشة راضية » « يا ليتها كانت القاضية » والآية التالية فى كل يقال عنها الشىء ذاته . الأولى تنتهى بلفظة « عالية » والثانية بلفظة « ماليه » . قال تعالى : « فى جنة عالية » « ما أغنى عن ماليه » والآية التالية فى كل يقال عنها الشىء ذاته . الأولى تنتهى بلفظة « دانية » والثانية بلفظة « سلطانيه » قال تعالى « قطوفها دانية » « هلك عنى سلطانيه » .

وتبقى بشأن الشق الأول المتعلق بمن أوتى كتابه بيمينه آية ليس لها — من جنسها — ما يقابلها فى الشق الثانى المتعلق بمن أوتى كتابه بشماله . لأن المعنى هو الذى يوجه الألفاظ فى كل كلام جيد ، فكيف بالقرآن الكريم الذى هو قمة الاعجاز البلاغى .

وكل أنواع الكلام فى الشق تجىء فى نغمة صوتية متجانسة الأجزاء امتدادا لتجانس ملابسات المسائل بشأن من أوتى كتابه بيمينه ، وتجانس ملابساته النفسية تبعا لذلك . فهو يكتفى من الكلام بما قل ودل ، لأن كتاب أعماله ينوب عنه فى الحديث ، وقد حشر مع جملة المتقين الى جنة الرحمن وفدا « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »(١) .

أما من أوتى كتابه بشماله ، فما أطول كلامه الذى كاد يساوى مجموع الكلام الذى صدر عن المتقى ، وفى وصف الجنة ، وفى الرد على المتقى من الملائكة الأطهار . وبما أن الملابسات بشأن المجرم

---

(١) الرعـــد ، ٢٣ ، ٢٤ .

مختلفة ، مما انعكس فى اضطراباته النفسية ، فقد استتبع ذلك ، ولأول مرة فى السورة الكريمة ، أن تتغير نغمة الفاصلة فى السورة ، ليس مرة واحدة فى حقه ، بل مرتين ، مما هيأ لاستمرار التغير حتى نهاية السورة . يحدث كل ذلك اشعارا باضطراب من أوتى كتابه بشماله نفسيا وبأنواع العذاب التى هى من نصيبه فى جهنم وبئس القرار . واذا كان من أوتى كتابه بيمينه قد عبر فى آية واحدة على لسانه عن السبب فى نجاته : « انى ظننت انى ملاق حسابيه » فان طول الكلام الذى صدر عمن أوتى كتابه بشماله لم يجده فتيلا ولم يرو له غليلا ، اذ كان تصويرا أمينا بارعا لأوهامه فى الحياة الدنيا التى قادته الى مهاوى الردى يوم القيامة . لذا أردف السياق ببيان أهم سببين فى ذلك العقاب الذى كان من نصيبه ، كى يأخذ الجميع العظة والعبرة من هذه السورة المكية التى من أهم أهدافها ارساء قواعد العقيدة ، شأنها فى ذلك شأن سائر المكى من القرآن . وبسبب هذا الارداف طال الشق الثانى طولا ملحوظا .

والآن مع الآية الكريمة الأولى فى الشق الأول . قال تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » . ابتدات الآية الكريمة بالقول « فأما » وأما حرف تفصيل ، فصل بها ما وقع فى يوم العرض(١) ان هذا المؤمن التقى ، وقد أوتى كتاب أعماله بيده اليمنى،بعد أن حوسب حسابا يسيرا وانقلب الى أهلهمسرورا. جاء فى سورة الأنشقاق(٢) قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابهبيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب الى أهله مسرورا » والمعروف أن لفظة اليمين ، ضد الشمال ، من اليمن ، بالضم ، بمعنى البركة . بل ان اليمين ذاتها تعنى البركة والقوة . أما أنها تعنى البركة فلأن أكثر الأعمال المحبوبة والتى تحتاج الى لطف معالجة ، تباشر باليد اليمنى . وأما انها تعنى القوة ، فلأن الغالب على البشر فى معالجة الأشياء ، أن يعتمدوا على اليد اليمنى بأكثر من اعتمادهم على الأخرى ومن هنا استعملت اليمين دليلا على اليمن والبركة « لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح والشمال من دلائل الغم ، قال الشاعر :

---

(١)البحر المحيط ، ٣٢٤/٨ .
(٢) آيات ، ٧ ــ ٩ .

أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك(١)

كما استعملت دليلا على القوة والبطش .

ويجوز أن يكون من الأسباب التى قوت نصيب اليمين من اليمن والبركة ، كون اليمين موضع الكبد . والكبد مظنة الشهوة والارادة(٢) ولما كانت اليمين مرتبطة باليمن والبركة ، كان أخذ الأشياء باليمين وكذلك اعطاؤها دليلا على البشر والحبور . ومثل هذا الانطباع نستطيع أن نفهمه من قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه » ولما كانت اليمين مرتبطة بالقوة ، كان أخذ الأشياء باليمين وكذلك اعطاؤها دليلا على القدرة . ومثل هذا الأنطباع نستطيع أن نفهمه من قوله تعالى فى هذه السورة الكريمة(٣) « لأخذنا منه باليمين » وسنتبين ذلك باذن الله تعالى مستقبلا فى صورة أوضح .

ان اعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة(٤) وقد فهم من أوتى كتاب أعماله يوم القيامة فى هذه الطريقة أنه قد فاز فوزا عظيما . وها هو ذا بعد أن حوسب حسابا يسيرا ، ينقلب الى أهله مسرورا ، حاملا كتاب أعماله بيده . وكأنى بهذه اليد هى اليمنى ، طالبا من كل فائز مثله ، أن يقرأ كتاب أعماله الذى لم يبق فيه الا الحسنات ، بعد أن بدل الله تعالى ، منا منه وفضلا السيئات تبديلا ، قائلا كما جاء على لسانه : « هاؤم اقرءوا كتابيه » . جاء « فى الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها ، حتى اذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : انى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، الا لعنة الله على الظالمين »(٥) .

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٨ .
(٢) انظر القاموس « يمن » .
(٣) آية ، ٤٥ .
(٤) تفسير القرطبى ، ٦٧٤٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ، ٤/٤١٥ .

ان هذا القول على لسان من أوتى كتابه بيمينه « هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه » دليل على أن فـــرح هذا الناجى لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون عليه وقتا من الأوقات من مزيد . وحق لناجى أن يفرح لنجاحه فى ذلك الامتحان النهائى الأكبر . ان فعل هذا الناجى ، وقوله أكبر دليل على فرحه الذى ليس له نظير .وكى يبدو شىء من الفرح الذى هجم على الناجىفتجلى فى قوله وفعله ، وينبغى أن يكون كل ناج من المكلفين الذين أوتوا رشدهم ، فى امكاننا أن نستعرض الأناسى ، الذين يمكن أن يصدر منهم فى الحياة الدنيا قول أو فعل كهذين . ولنتخذ الدراسة مجالا لتأملنا . اننا لا يمكن أن ننتظر قولا وفعلا كهذين من شخص نال أعلى الدرجات العلمية فى حياته ، وأعلى الجوائز التقديرية . ان فرحه بنجاحه وتفوقه كبير ولاشك ، وقد يجد نفسه أكبر من تلك الجوائز التقديرية التى تمنح له . وما أكثر الأدلة على ذلك من الواقع . كما أنا لا ننتظر قولا وفعلا كهذين ممن يقلون درجات ودرجات عن هذا المستوى من النجاح . ومن الذين يمكن أن يصدر منهم هذا الطلب ، من كل من قابلوا ، عرفوهم أم لم يعرفوهم ، بأن يقرءوا شهادات نجاحهم ،مشيدين باجتهادهم فىاستذكار دروسهموتفوقهم، لعلمهم أن ثمة امتحانا ، يكرم فيه المرء أو يهان؟ . انا فى حقيقة الأمر لا ننتظر فى حياتنا الدنيا شيئا كهذا الا من أشخاص استخفهم الفرح وغلبت عليهم العاطفة ويكاد يكون ذلك مقصورا على صغار السن فقط . فحينما ينجح الواحد منهم ، ويعطى الشهادة بنجاحه،يتمنى من كل الناس أن يطلعوا على شهادته ، وأن يقدروا اجتهاده ، حق قدره ، ولا يقوى هو علىان يجعل تلك المنى حبيسة نفسه انما يترجمها عرضا لشهادته على كل من صادف ، واشادة بمجهوده الذى بذل .

ان حال الناجى يوم القيامة ، وقد أوتى بيمينه كتاب أعماله ، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، غير بعيد ، وهو الذى ينبغى أن يكون قد أوتى رشده ، من حال الصغار الذين داهمتهم فرحة النجاح فى الامتحان وكيف لا يعبر الناجحون فى الامتحان الأكبر، بتلك الحركة الآلية ، وبذلك القول الدال على كونهم أهلا لتحمـــل المسئولية ، بعد أن نجحوا أعظم النجاح ، فى أكبر امتحان نهائى . فحق لهم أن يفرحوا الفرح الذى ليس عليه من مزيد . قال تعالى:

« فأما من أوتى كتابه بميينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه » .

وهاؤم اسم فعل أمر . هاء صوت يصوت به فيفهم منه معنى خذ ، كأف وحس وما أشبه ذلك(١) . ومنه الخبر فى الربا الا هاء وهاء أى يقول كل واحد لصاحبه خذ(٢) ويجوز فيه بالاضافة الى المد « هاء » القصر « ها » (٣) ويستعملان بكاف الخطاب . ويجوز فى الممدودة أن يستغنى عن الكاف بتصريف همزتها تصاريف الكاف. تقول : هاء للمذكر وهاء للمؤنث وهاؤما وهاؤن وهاؤم .ومنه هاؤم اقرءوا(٤) .

وكتابيه ، منصوب بهاؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين باقرءوا لأنه أقرب العاملين وأصله : هاؤم كتابى اقرءوا كتابى . فحذف الأول ، لدلالة الثانى عليه . ونظيره : آتونى أفرغ عليه قطرا . قالوا ولو كان العامل الأول لقيل : اقرأوه وأفرغه(٥) .

وحينما نفهم القول : هاؤم بمعنى خذوا وليس بمعنى تعالوا ، الذى ذهب اليه بعض المفسرين(٦) فذلك خادم لفرح الفائز يوم القيامة . إذ أنه دليلا على فرحه ، لا يريد ممن يقابل ويخاطب ، من الفائزين ، شيئا أكثر من العمل الضرورى الذى ينبغى أن يقوم به كل فائز ، دليلا على المشاركة فى الشعور ذاته . وهذا العمل يتركز فى تناوله بيمينه كتاب أعمال الفائز مثله ، بعد أن قدمه اليه بيمينه ، كى يقرأ ما فيه من حسنات . ونحن فى غنى عن القول : أن من أوتى كتابه بيمينه لا يخاطب الا الفائزين أمثاله فى ذلك الامتحان الأكبر .

---

(١) الكشاف ، ٣/٢٦٤ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٨ .
(٣) القاموس « الهاء » .
(٤) القاموس « الهاء » .
(٥) الكشاف : ٣/٢٦٤ .
(٦) أنظر تفسير القرطبى : ص ٦٧٤٨ ، والبحر المحيط : ٨/٣٢٥ .

والهاء للسكت فى كتابيه . وكذلك فى حسابيه وماليه وسلطانيه(١) وقد أدخلت الهاء لتبين فتحة الياء(٢) وقرأ الجمهور كتابيه وحسابيه فى موضعهما . وماليه وسطانيه . وفى القارعة . ماهيه ، باثبات هاء السكت وقفا ووصلا لمراعاة خط المصحف (٣) وجملة هذه الحروف سبعة(٤) وهى فى سورة الحاقة فى الآيات : ١٩، ٢٠، ٢٥، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ . وفى القارعة الآية العاشرة .

وهذه هى الآية الكريمة التالية ، على لسان الفائز يوم القيامة . قال تعالى : « انى ظننت انى ملاق حسابيه » . ظننت بمعنى علمت وأيقنت . وعن قتادة : ظن ظنا يقينا فنفعه الله بظنه(٥) وقال : ماكان من ظن الآخرة فهو علم(٦) وقال ابن زيد : ان الظن من المؤمن يقين وان عسى من الله واجب « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» و «عسى أن يكونوا من المفلحين(٧) » وعن مجاهد قال : كل ظن فى القرآن انى ظننت يقول : أى علمت(٨) وقال : ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك(٩) وقال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر(١٠) فهو شك وقال الحسن فى هذه الآية: ان المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل . وأن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل (١١) ولو كان ظنا فيه تجويز لكان كفرا (١٢) ومعنى الآية الكريمة : قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لامحالة ، كما قال تعالى : « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم »(١٣) يعنى أنه ما نجا الا

---

(١) الكشاف ، ٣/٢٦٥ .
(٢) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٨ .
(٣) البحر المحيط ، ٨/٣٢٥ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٨ .
(٦) تفسير الطبرى ٢٩/٣٩ .
(٧) تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٨ .
(٨) تفسير الطبرى ، ٢٩/٣٩ .
(٩) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٩ .
(١٠) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٩ .
(١١) تفسير القرطبى ، ٦٧٤٩ .
(١٢) البحر المحيط ، ٨/٣٢٥ .
(١٣) تفسير ابن كثير ، ٤/٤١٥

بخوفه من يوم الحساب ، لأنـــه تيقن أن الله يحاسبه ، فعمـــل للآخرة(١) .

وهذه هى الآيات الأربع ، التى تصور حسن ثواب الفائز . قال تعالى : « فهو فى عيشة راضية . فى جنة عاليه . قطوفها دانية . كلوا وأشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

لقد وصفت عيشة الجنة بأنها راضية . قال أبو عبيدة والفراء : راضية أى مرضية ،كقولك ماء دافق أى مدفوق . وقيل : ذات رضا، أى يرضى بها صاحبها مثل لابن وتامر ، أى صاحب اللبن والتمر(٢) . وانما وصفت العيشة بالرضا وهى مرضية ، لأن ذلك مدح للعيشة . والعرب تفعل ذلك فى المدح والذم . فتقول : هذا ليل نائم وسر كاتم وماء دافق ، فيوجهون الفعل اليه وهو فى الأصل مفعول لما يراد من المدح أو الذم . ومن قال ذلك لم يجز له أن يقول للضارب مضروب ولا للمضروب ضارب ، لأنه لا مدح فيه ولا ذم(٣) وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا . ويصحون فلا يمرضون أبدا . وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا . ويشـــبون فلا يهرمون أبدا(٤) .

ووصفت الجنة فى الآية التالية بأنها عالية . قال تعالى : « فى جنة عالية » : « وقد فسر العلو بالمكان وبالقدر فقيل فى بستان عال رفيع (٥) وجاء فى الكشاف(٦) : « عاليه : مرتفعة المـــكان فى السماء ، أو رفيعـــة الدرجات ، أو رفيعـــة المبانى والقصـــور والأشجار » . وجاء فى تفسير ابن كثير(٧) : عاليه : أى رفيعـــة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها » . وجاء

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٩ .
(٢) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٩ .
(٣) تفسير الطبرى ، ٣٩/٢٩ وانظر الكشاف ، ٢٦٥/٣ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٩ .
(٥) تفسير الطبرى ٣٩/٢٩ .
(٦) ٢٦٥/٣ .
(٧) ٤١٥/٤ .

فى تفسير القرطبى(١) : عاليه : عظيمة فى النفوس . وجمع أبوحيان فى البحر المحيط(٢) بين المكان والقدر فقال : عالية : اى مكانا وقدرا.

واذا كانت الجنة عالية مكانا ومكانة ، فان ثمارها دانية . جاء فى الآية التالية قوله تعالى : « قطوفها دائبة » لقد أوحت لفظتا عالية ودانية فى الآيتين الكريمتين بالعلاقة المعنوية بينهما للتداعى بالتضاد ، وقديما قال الشاعر المتنبى :

وبضدها تتبين الاشياء

والقطوف جمع قطف ، بكسر القاف ، وهو ما يقطف من الثمار ويجتنى(٣) ودانية أى قريبة التناول يدركها القائم والقاعد والمضطجع، الله . مثل : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »(٤).

ولما كانت القطوف الدانية بمعنى الثمار قريبة التناول ، تقوم مقام الطعام والشراب معا ، وهما من أهم مقومات النعيم ، هذا الى أن القطوف ، بمعنى الفاكهة ، وهى من التفكه بمعنى التلذذ ، تعتبر خير دليل على دنو ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين ، من المطعومات والمشروبات الخالصة ، فقد كان ذكر القطوف الدانية ، خير مهيىء للافصاح عن نعمتى الطعام والشراب . جاء آخر آيات الشق قوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . ان من منغصات طعام الدنيا احتمال أن يغص الانسان به ومن منغصات شرابها احتمال أن يشرق الانسان به. أما يوم القيامة فان الطعام هنىء والشراب مرىء دائما وأبدا. والى ذلك أشار القول : «كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » أى بما قدمتم من الأعمال الصالحة ، فى أيام الدنيا التى خلت فمضت(٦) ويقال لهم ذلك

---

(١) ص ٦٧٤٩ .
(٢) ٣٢٥/٨ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٩ والبحر المحيط ٣١٩/٨ و ٣٢٥
(٤) البحر المحيط ، ٣٢٥/٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، ٣٩/٢٩ .
(٦) انظر تفسير الطبرى : ٣٩/٢٩ . وتفسير القرطبى : ص ٦٧٤٩

تفضلا عليهم وامتنانا ، وانعاما واحسانا. والا فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اعملوا وسددوا وقاربوا. واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة قالوا : ولا أنت يارسول الله . قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »(١) .

الشق الثانى :

قال تعالى : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم. ولا طعام الا من غسلين. لا يأكله الا الخاطئون » .

هذه هى الآية الكريمة التى ينص الشق الأول منها على الطريقة التى يتم فيها تناول المجرم كتاب أعماله . قال تعالى : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه » . ان الشق الأول هذا بحاجة منا الى أن نقف عنده وقفة متأنية . وأول مايلاحظ أن الآية الكريمة تستعمل لفظة شمال دليلا على اليد اليسرى ، وذلك فى مقابل استعمال اليمين دليلا على اليد اليمنى . وان أول سؤال يفرض نفسه علينا هو : لماذا استعملت الآية الكريمة لفظة شمال بالذات وليس لفظة يسار مثلا ؟ والجواب على ذلك أن لفظة شمال ، وان كانت تدل على اليد اليسرى، الا أن لفظة شمال أكثر ارتباطا بالمواقف غير المبهجة وغير السارة . بدليل أن من معانى لفظة الشمال الشؤم(٢) وأنها فى القرآن الكريم تستعمل فى هذه المواقف فقط . واليك هذه النماذج من الذكر الحكيم . قال تعالى(٣) : « وأصحاب الشمال ما أصحاب

---

(١) تفسير ابن كثير ، ٤/٤١٥ .
(٢) أنظر القاموس « شمل » .
(٣) الواقعة ، ٤١ ، ٤٢ .

الشمال . فى سموم وحميم » وقال تعالى(١) : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين . عن اليمين وعن الشمال عزين . أيطمع كل امرء منهم أن يدخل جنة نعيم » وقال تعالى(٢) : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » وقال تعالى فى هذه السورة الكريمة : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه » .

اما لفظة يسار ، فانها أكثر ارتباطا بالمواقف المبهجة السارة. وان نظرة بسيطة على مشتقات هذه المادة فى المعاجم اللغوية ، تعطى هذا الانطباع ، كاليسر واليسار والموسر والميسور والتياسر بمعنى التساهل . وتيسر واستيسر وياسره الخ(٣) وان نظرة على مشتقات هذه المادة فى القرآن الكريم ، تعطى هذا الانطباع أيضا ، بحيث ان كل استعمالات هذه المادة فى القرآن الكريم تدل على اليسر والبساطة، واللين والانقياد . واليك بعضا من هذه النماذج للاستعمالات القرآنية . قال تعالى(٤): «ونيسرك لليسرى » وقال تعالى (٥) : « فسنيسره لليسرى » وقال تعالى(٦) : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » وقال تعالى(٧) : « فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا » وقال تعالى(٨): «ذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير » . وقال تعالى(٩) : « الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » .

وان استعمال لفظة شمال فى المناسبات غير السارة لأن من متعلقاتها الشؤم . واستعمال لفظة اليسار أو اليسرى فى المناسبات

---

(١) المعارج : ٣٦ — ٣٨ .
(٢) الاعراف ، ١٧ .
(٣) أنظر القاموس « يسر » .
(٤) الاعلى ، ٨ .
(٥) الليل ، ٧ .
(٦) الطلاق ، ٤ .
(٧) الشرح ، ٥ ، ٦ .
(٨) المدثر ، ٩ ، ١٠ .
(٩) الفرقان ، ٤٥ ، ٤٦ .

السارة ، لأن من متعلقاتها اللين والانقياد ، يوحى بأن العرب انما أطلقوا لفظة اليسار نقيضا لليمين . واليسرى واليسرة والميسرة ، خلافا لليمنى واليمنة والميمنة ، من قبيل التفاؤل ، وذلك على غرار اطلاق لفظة القافلة ، من القفول ، بمعنى العودة ، تفاؤلا بعودة القافلة سالمة موفورة العدد . واطلاق لفظة السليم ، تفاؤلا بسلامة الذى نهشتهه الأفعى ، ويخشى عليه الموت الزؤام . وهكذا . ولذلك علاقة بظاهرة التطير عند العرب أساسا .

ويلاحظ وراء ذلك بشأن هذا الشق الأول : « وأما من أوتى كتابه بشماله » أن كل مجرم لا يأخذ كتاب أعماله الا بيده الشمال، على غرار أخذ كل فائز كتاب أعماله بيده اليمنى.واذا كنا نستطيع أن نفهم بساطة ، أخذ كل فائز كتاب أعماله بيده اليمنى ، لأن هذا هو الشيء الطبيعي ، فلماذا لا يأخذ المجرم كتاب أعماله الا بيده الشمال ؟ ولزيادة هذا الأمر وضوحا نقول : لنفترض أننا أمام حشد من التلاميذ الذين توزع عليهم شهادات الامتحان . ولنتصور الطريقة التى تتم بها عملية تسلم التلاميذ لنتائجهم . الحقيقة أن طريقة تسلم التلاميذ نتائجهم تختلف باختلاف الملابسات.فلو تصورنا أن هذه النتائج يعلنها مدرسو المواد على رءوس الاشهاد من التلاميذ، وفيهم الناجح وفيهم المخفق ، وقد انعكست آثار كل نتيجة على المدرس والطالب، ابتهاجا لنجاح مسعى كل من المدرس والطالب ، أو أسى لاخفاق مسعاهما ، فانه ينبغى أن يكون لهذه الملابسات أثرها فى طريقة اعطاء المدرس ورقة امتحان تلميذه وتناول التلميذ لها ، بناء على النجاح أو الاخفاق . وليس ببعيد عن أذهاننا القول مثلا : ضرب بهذا الرأى أو القول عرض «بضم العين» الحائط، أى ناحية من نواحيه وأعرض عنه،وانما أخذ هذا المثل من الطريقة الدالة على استياء الأستاذ من تلميذه الخائب فى الامتحان ، حينما يعيد اليه كراسته ، ضاربا بها عرض الحائط . وربما تمزقت الكراسة.وينبغى أن يكون لهذه الملابسات أثرها فى الطريقة التى يتم بها تناول التلميذ الفاشل ورقة اجابته فى الامتحان .

باعطاء هذه الصورة التقريبية للطريقة التى يتم بها تسلم المجرم يوم القيامة كتاب أعماله ، أردنا أن نبين أن الملابسات لها دورها فى طريقة تسلم المجرم كتاب أعماله يوم القيامة . ان الملابسات كلها

توحى بأن الشر فى حقه مستطير ، لهذا هو يتلقى كتاب أعمـــاله بيده الشمال ، تعبيرا طبيعيا عن حالته النفسية الغاية فى الســـوء ورد فعل للملابسات ، وكلها فى غير صالحة . واذا كنا فهمنا أن طريقة ايتاء أصحاب اليمين كتب أعمالهم فى طريقة كريمة ، ومن متعلقات ذلك أن يكون الايتاء باليد اليمنى ، فمن الجائز أن نفهم عكس كل ذلك فى حق المجرمين ، الذين حاولنا تقريب ايتائهم كتب أعمالهم بالطريقة التى يضرب بها كراس التلميذ الفاشل عرض الحائط . وفى تلك الطريقة أبلغ دليل على الفشل وسوء العقبى .

فاذا تحولنا الى الشق الثانى من الآية الكريمة : « فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه » فأول ما نبغى الوقوف عنده ، حرف الفاء الذى يفهم منه السببية الغاية فى الاهمية بهذه المناسبة . والا فقد كان فى الامكان الاستغناء عن حرف الفاء . وان مجيئه دليل على الارتباط بين شقى الكلام ارتباط السبب بالمسبب . ان تسلم المجرم كتاب أعماله بيده الشمال يدل على الشر المستطير . وها هو ذا يترجم الأسى كلاما حيث لا ينفع الأسى ولا الكلام . وان « يـــا » الدال على التنبيه والذى كان من الممكن الاستغناء عنه ، يتيح للصوت وللنفس أن يمتدا ، لاشتماله على الألف . ومهما كان الصوت والنفس مديدين ، فان الأسى الداخلى المتجدد أكبر منهما ومعروف أن ليت حرف تمنى متعلق بالمستحيل غالبا ، فهذا المتمنى يعرف أن تمنيه فى حـــكم المستحيل . ولكن ليس فى مقدور المصدور الا أن ينفث . وهاهو ذا ينفث مترجما الأسى كلاما يميل الى الطول النسبى ، متمنيا لو أن الموتة الأولى التى ذاقها فى الحياة الدنيا ، كانت الأخيرة ، متحسرا على سوء تقديره فى الحياة الدنيا،حيث قد اغتر بماله وجاهه وحمقه. ان الأسى الذى تمكن منه ، حينما أوتى كتابه بشماله استبد به ، بعد أن تبين أن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ومن ثم هو يترجم الأسى قولا . وقياسا على كون قول الذى أوتى كتابه بيمينه مسموعا ، لفرط الفرح ، ينبغى أن يكون قول من أوتى كتابه بشماله مسموعا مثله ، لفرط الأسى . انه يتمنى أولا لو انه لم يؤت كتاب أعماله . ويبنى عليه تمنيا آخر لو انه لم يدر ما حسابه، لأنه عن طريق هذا الكتاب ، عرف عقابه . وتأمل لفظة الحساب الواحدة وقد جاءت على لسان كل من البر والفاجر انها تعنى بشأن البر خيرا كثيرا . وبشأن الفاجر شرا مستطيرا . وان الفـــاجر

حريص على استعمال ما التى تتفق صوتيا مع « يا » الدالة على التنبيه وينبغى أن يكون القصد واحدا فى المناسبتين « ولـــم أدر ما حسابيه » .

ولكن كيف يتسنى لهذا الفاجر ألا يؤتى كتابه وأن لا يعرف حسابه، على نحو ما تمنى ؟ يتسنى لو أنه لم يبعث بعد أن ذاق الموتة الأولى، ولو أن تلك الموتة كانت الأولى والأخيرة ، على نحو ما كان يصرح فى حياته الدنيا . وها هو ذا يكرر تمنيه ، وبين يديه « يا » التى تفيد التنبيه . ولكنه تمن متعلق بالموتـــة الأولى : « ياليتهـــا كانت القاضية » والمراد ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت القاضية ، أى القاطعة لأمرى فلم أبعث ولم أعذب(١) قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا أكره اليه منه(٢) .

ويلاحظ أن هذا التمنى ترجمة لمـــا كان يعتقد فى حياته الدنيا من أنه ليس بعد الموت حساب ، ولا ثواب ولا عقاب . ويلاحظ أن هذا المجرم رمز لكل المجرمين المنكرين للبعث ، وفى مقدمتهم كفار مكة ، الهدف الأول لهذه السورة المكية التى تعالج أسس العقيدة وفى مقدمتها الايمان باليوم الآخر .

وما الذى أذهل هذا المجرم فى الحياة الدنيا عن الايمان بحقيقة البعث بعد الموت، بالرغم من أن تعاليم السماء التى تقول بالبعث بين يديه وأمام عينيه ؟ انه الكبر الزائف ، والغرور الفاجر ، والهوى المعبود، والعقوق الآثم ، وسوء التصرف فى نعم الله تعـــالى ، الظاهـــرة والباطنة ، التى لا تحصى وسوء فهمها . أما أهم الأسباب التى أدت الى العاقبة الوخيمة ، فانها الحسب والنسب ، المال والجاه ، التى أدت الى سوء التقدير وسوء المصير . وقد أشارت الآيتان التاليتان على لسان المجرم الى ذلك . قال تعالى : « ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » . ان كل جوهرة فى عقد هاتين الآيتين الكريمتين بحاجة الى انعام نظر وادامة تأمل . ولعل أول ما يشد الانتباه ، التشابه الصوتى بين الآيتين الكريمتين ويكفى أن يقال ان الاختلاف

---

(١) البحر المحيط ، ٣٢٥/٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ، ٤١٦/٤ وتفسير الطبرى ، ٣٩/٢٩ .

الطفيف يتركز بين « هلك » فى الآية الثانية ، وبين « ما أ غ » فى الآية الأولى . حيث تتألف « هلك . من ثلاث حركات أو ثلاثة مقاطع صوتية قصيرة ، بينما تتألف « ما أ غ » من حركة فسكون فحركة فسكون ، أو من مقطعين صوتيين متوسطين . وما أكثر ما يتحول المقطع المتوسط الى قصير . وتتفق الآيتان الكريمتـــان وراء ذلك صوتيا فى كل شىء .

ولعلنا لاحظنا أن القول : « عنى » قد جاء فى كل من الآيتين الكريمتين : « ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » . وللتكرار جماله الصوتى وعمق مغزاه المعنوى فى مثل هذه الحال .

وواضح أن فى الآية الأولى : « ما أغنى عنى ماليه » نفيا لغناء مال الكافر شيئا لأنه لا ينفع فى ذلك اليوم مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . ان الكافر عرف هذه الحقيقة يوم القيامة ، وان ذكره للمال هنا الذى لم يغن عنه شيئا دليل على أن للمال فى حياته الدنيا كبير حيز فى نفسه ، وكبير دور ، حيث كان يفرح ويمرح فى الأرض بغير الحق ونحن بحاجة الى أن نتبين الرابطة بين جملة أغنى وبين المال فى الآية الكريمة ، فنتساءل : متى يكون المال دليلا على الغنى ؟ وما الدور الذى كان ينتظر هذا الاشر البطر من المال أن يقوم به يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لا يؤمن به . بينما كان يستطيع أن يقيم الدنيا ويقعدها بماله ؟ أما متى يكون المال دليلا على الغنى ففى امكاننا أن نفهمه من مثل قولهم الغنى كالى ضد الفقر . والغنى ذو الوفر(١) واليك هذه القصة من الحيوان للجاحظ(٢) : « وقيل لابنة الخس : ما تقولين فى مائه من المعز ؟ قالت قنى(٣) قيل : فمائة

---

(١) القاموس « غنى » .

(٢) ٥ / ٤٥٩ .

(٣) بكسر ففتح ، جمع قنية بالكسر والضم ، وهو ما اكتسب . وقنى الغنم كغنى ما يتخذ منها لولد أو لبن . القاموس واللسان . « قنا » . وقال اللحيانى قنيت العنز اتخذتها للحلب اللسان « قنا » وله غنم قنية وقنيه ، (بكسر القاف وضمها) اذا كانت خالصة له ثابتة عليه . وقنى الغنم ما يتخذ منها للولد أو اللبن . وفى الحـديث أنه نهى عن ذبح قنى الغنم قال أبو موسى : هى التى تقتنى للدر والولد . واحدتها قنوة وقنوة ، بالضم والكسر . وقنيه بالياء أيضا . يقال هى غنم قنوة وقنية » اللسان « قنا » .

من الضأن ؟ قالت : غنى ! قيل : فمائة من الابل قالت منى! »(١).

ولا يخفى من السياق ومن الواقع أن الضأن أحب الى العرب من المعز . ويفهم من جواب ابنة الخس أن المعز تستحق أن تقتنى وأن الضأن غنى . ومعنى القنى من السياق ، أن صاحب المائة من المعز من حقه أن يقول ، فى شىء كبير من الرضا ، انه يقتنى شيئا ذا قيمة ، وأن صاحب المائة من الضأن من حقه أن يقول انه غنى ، من أهل الثراء والجاه . أما صاحب المائة من الابل ، فمن حقه أن يقول : انه قد نال غاية المنى . ولا يخفى أن المائة الثالثة فى نظر ابنة الخس الأعرابية من باب المنى وأن المائتين الأوليين أقرب الى أن تكونا حقيقة واقعة يوما من الأيام .

والذى يعنينا من أبعاد هذه القصة أن الغنى ضد الفقر . وأن الأغنياء حينما لا يكونون مصدقين بأن بعد الموت بعثا ، ككفار مكة وعاد وثمود وفرعون وقوم نوح ومن شاكلهم ، يظنون أنهم قد نالوا بمالهم كل شىء ، لأنهم يسيئون فهم امهال الله تعالى لهم ، ومدهم فى طغيانهم يعمهون . فهم بدلا من أن يقوموا بما يجب عليهم مقابل نعم الله تعالى عليهم التى لا تحصى ، من شكر لله تعالى ، وأول مظاهر الشكر عبادته عز وجل وحده لا شريك له ، هم يفتنون بمالهم وجاههم بسبب المال فى المقام الأول ، لدرجة أنهم يتحولون عابدين للدينار والدرهم . وحينما يفاجأون بالبعث يوم القيامة ، وهم صفر من كل عمل صالح ، قال تعالى(١) : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » فان معجمهم اللغوى آنذاك ، وقد أفلست نفوسهم روحيا ، رد فعل لامتلاء نفوسهم بشهوة الحب للمال وتقديره ، لأنه هو كل شىء فى حياتهم . حتى الجاه والسلطان انما اكتسبوه بسبب المال . لهذا فان الواحد منهم يوم القيامة ، يجىء على لسانه القول : « ما أغنى عنى ماليه » . وكأنه يريد أن يقول : ان المال قد أغنانى فى الحياة الدنيا . وكأنه يعبر عن خيبة أمله الوحيد فى كون ماله فى الحياة الدنيا الذى جمعه من حلال وحرام ، يمكن أن ينفعه فى ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود .

---

(١) وانظر اللسان « غنا » .
(٢) الفرقان ، ٢٣ .

وهذا هو الجواب على سؤالنا : ما الدور الذى كان ينتظر هـذا الأشر البطر من المال أن يقوم به يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لم يكن يؤمن به ، بينما كان يستطيع أن يقيم الدنيا ويقعدها بماله ؟

وتأمل الدور العظيم للجار والمجرور « عنى » وكأنه يضمن جملة « أغنى » معنى طرد الأذى وأبعد العذاب . وبهذا تستطيع جملة « أغنى » أن تشى باغترار الكافر بماله وتعليقه كل الآمال به ومرارة خيبته وفرط عجزه وقلة حيلته . لدرجة أن المال الذى غنى به فى الحياة الدنيا ، ونال الجاه العريض ، قد عجز يوم القيامة ، عن أن يدفع عنه مثقال حبة خردل من الأذى الذى نال وسينال . لقد كان يظن أن المال قادر دائما وأبدا على أن يجلب له نفعا ، فاذا بالمال عاجز عن أن يدفع ضرا . وها هو ذا يقف يوم القيامة على الحقيقة التى أعلنتها فى الحياة الدنيا تعاليم السماء : « يوم لا ينفع مـال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم »(١) .

واذا كانت هذه الآية الكريمة على لسان من أوتى كتابه بشماله : « ما أغنى عنى ماليه » متعلقة بالاغترار بالمال ، فان الآية الكريمة التالية على لسانه أيضا : « هلك عنى سلطانيه » متعلقة بالسلطان الذى يمكن أن يفسر بالجاه فى حق من اغتر بجاهه وسلطانه ، وبالحجة فى حق من اغتر بفكره وعقله فى القضايا الغيبية التى لا مجال فيها لفكر ولا عقل ، انما لتعاليم السماء التى وصلت البشر عن طريق رسـل الله تعـالى .

وتأمل جملة « هلك » التى جاءت فى الزمن الماضى ، على غرار جملة « أغنى » والتى يؤثرها المجرم آنذاك على كل جملة أخرى ، رغم أنها تدل أساسا على الموت : « هلك عنى سلطانيه » . انه لا يقنع بجملة ذهب عنى أو غاب أو خذل أو ما شاكل ذلك ، لأن كلا من هذه الجمـل لا تغنى غناء جملة « هلك » التى يرتبط بهـا الموت والهلاك . وما الذى مات وهلك ؟ انه السلطان . وحينما نضع الموت والهلاك فى جانب ، والسلطان بمعنى غاية القوة التى تستند الى جاه أو حجة ، فى جانب آخر ، فان هذا الوضع المقارن

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

يظهر السلطان يوم القيامة فى أسوأ حالاته . وهل وراء الموت والهلاك وراء ؟ كما أنه يشى على غرار وشاية الغنى فى الآية السابقة بقصور الأوهام ، التى بناها الفاجر فى الدنيا ، على سلطانه ، وذلك على غرار قصور أوهام الثراء . ان زيف الدنيا من مال وجاه وحجج واهية ، ظهر يوم القيامة على حقيقته . وها هو ذا الفاجر تذهب نفسه حسرات على ما فرط فى جنب الله . واذا كنا لاحظنا أن من أقوى الأدلة على ذلك بشأن الآية الأولى ، الجار والمجرور ، فان الشىء ذاته يقال بشأن الآية الثانية . بحيث يستطيع الجار والمجرور هنا أن يضمنا الفعل « هلك » الذى يدل على الموت والهلاك أساسا(١) معنى فعل آخر ، يعنى انصراف سلطان الفاجر وتخليه عنه يوم القيامة . والحقيقة أن الفعل « هلك » أبلغ فعل يحتل هذا المكان فهو أساسا ، يدل على حقيقة هوان سلطان الدنيا يوم القيامة . وهو لتعلق « عنى » الجار والمجرور به يدل على أن آمال الكافر العراض ، غدت هباء وأوهامه الكبار ذهبت بددا . قال تعالى : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ».

أما وقد صدر القرار فى حق المجرم بالنار وبئس المصير ، فلم يبق سوى التنفيذ . قال تعالى خطابا للملائكة الغلاظ الشداد ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

ما أصعب ساعة تنفيذ الحكم . وما أرهب هذا المشهد . وما أروع التعاون بين المبنى والمعنى فى رسم خطواته وتصوير حركاته . وأول ما يلاحظ أن الآية الكريمة الثانية أطول من الأولى . والثالثة أطول من كلتيهما . ويلاحظ وراء ذلك أن كلا من الآيات الثلاث تنتهى بمقطع صوتى طويل ، عبارة عن حركة فسكونين . وقد سبق الهاء التى يصح السكوت عندها فى حالة الوقف واو ، ممدودة بطبعها ، وقابلة لأن تتخلص النفس أثناء النطق بها من الكثير من أحاسيسها

---

(١) أنظر القاموس « هلك » .

وانفعالاتها ، حتى اذا نطقت الهاء كان التخلص من آخر كميات الأحاسيس والانفعالات . قال تعالى : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

ويلاحظ انه فى حالة الوقوف عند نهاية كل من الآيات المتبقية ، حتى نهاية السورة ، نكون دائما بصدد مقطع طويل ، يتيح للنفس أن تفرغ بشأن كل آية اكبر كمية من انفعالاتها ومشاعرها ، لاجتماع الساكنين ، وكون أول الحرفين الساكنين واوا أو ياء قابلين بطبعهما لأن يمتد الصوت بهما اثناء النطق . ولا يخفى أن زفرة الأسى تأخذ فى الاشتداد منذ أن يؤتى المجرم كتاب أعماله بشماله . وقد كانت نغمة الكلام على لسانه من جنس نغمة الكلام على لسان من أوتى كتاب أعماله بيمينه ، بسبب المقابلة بين قول الناجى وحاله ، وبين قول المجرم وحاله .

ولما كانت المعاملة التى استحقها المجرم فريدة ، فقد استتبع ذلك حالة فريدة من أجل التعبير عنها . «خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » وقد أدت نغمة الكلام المتميزة ، وبخاصة فى نهاية كل من الآيات ، أن يستمر هذا التميز الى نهاية السورة ، لتشابه المواقف العنيفة الثائرة ، التى يلونها الأسى بلونه النفسى القاتم .

والآن مع الآيات الثلاث التى تصور الطريقة التى يعامل فيها المجرم يوم القيامة . قال تعالى : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . ان كل لفظة فى عقد هذه الآيات الثلاث بحاجة الى أن نقف عندها مليا . فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى خطابا لزبانية جهنم : « خذوه فغلوه » وأول ما يلاحظ أن جملة « خذ » ترتبط فى القرآن الكريم بالعذاب وبالطريقة الأليمة الشديدة التى يؤخذ بها المجرمون . وما أكثر الآيات القرآنية التى يستعمل فيها الأخذ فى حق المجرمين . ونكتفى بمثالين اثنين فى أحدهما تجىء جملة « خذوه » التى جاءت فى الآية التى نحن بصددها . وتستعمل فى ذات المعنى . جاء فى سورة الدخان(١) قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل

---

(١) آيات ، ٤٣ — ٥٠ .

يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق انك أنت العزيز الكريم . ان هـذا ما كنتم به تمترون » وفى ثانيهما يصرح بالعـذاب الأليم الشديد . قال تعالى فى سورة هود(١) : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » .

فاذا تحولنا الى الجملة الثانية فى الآية : « فغلوه » تبين لنا أنها تبدأ بالفاء التى تدل على السببية . ويفهم من ذلك أن أخذ الملائكة العنيف الشديد للمجرم ، من أجل أن توضع فى يديه الأغلال وأن تشد الى عنقه . أن الغل ، بضم الغين ، من سماته أن يشد اليدين الى العنق . وقد صورت هذه الآية الكريمة من سورة يس(٢) هذا المنظر أروع تصوير . قال تعالى : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون » . لقد قلنا فى كتابنا تأملات فى سورة يس قلب القرآن(٣) بشأن هذه الآية الكريمة انها تريد أن تقول :

ان هؤلاء القوم وقفوا من الدعوة الى صراط العزيز الحميد موقف المتكبر المتغطرس ، جهلا منهم وحمقا . فاستحقوا بناء على ذلك أن يستعار لتصوير موقفهم الخاطىء ، تلك الحال التى لا يحسدون عليها ، والتى وضعوا أنفسهم فيها أو فى وضع لا يختلف فى حقيقته عنها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وتلك هى حال الأسير العانى . وقد وضع فى عنقه الغل العريض الذى « يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة الى الذقن ، فلا تخليه يطأطىء رأسه ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحا » .

وقوله : « فهى » يعود الى الأغلال فى الآية وأضفنا فى الهامش : « انما ذهبنا هذا المذهب لأن الغل هو القيد الذى يوضع فى العنق أو فى اليد . واذا كان الغل جامعا لليد والعنق معا ، وكان ذلك أبلغ فى الدلالة على الذل فلا مانع من أن « فهى » يعود الى الأيدى التى لم تأت بصريح اللفظ . والله أعلم بالمراد » . والآن نود أن نضيف

---

(١) آية : ١٠٢ .
(٢) آية ، ٨ .
(٣) ص ١٧ من الطبعة الاولى و ص ٢١ من الطبعة الثالثة .

الى ما سبق : اننا الآن اشد ميلا الى كون « فهى » يعود الى الأيدى التى لم تأت بصريح اللفظ ، فى آية سورة يس الكريمة . لأن لفظة الغل غير القيد . ان القيد الذى يرتبط باليد او بالرجل يقيد كلا من اليد والرجل ، عن أن تأخذ كل منهما راحتها . أما الغل فانه أقدر دلالة على كون اليد متجهة الى الداخل الى العنق المغلولة نحوه . قال تعالى فى سورة الاسراء(١) : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . ان كون القول « فهى » فى آية سورة يس « انا جعلنا فى أعناقهم اغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون » يعود الى الأيدى ، يعتبر مظهرا من مظاهر اعجاز القرآن الكريم بالحذف ، لأن الغل ينبغى أن يحيط بالعنق . ولما كانت احاطة الغل بالعنق فقط ، لا قيمة كبيرة لها ، ما لم تكن قد شدت الأيدى الى الأعناق ، لذلك كان من مستلزمات الغل أن يشد اليدين الى العنق شدا ، دون الاكتفاء ، بتطويق العنق أو تحجيل الأيدى . ومن ثم نحن نرجح اخيرا ان القول : « فهى » يعود فى آية سورة يس الى الأيدى . جاء فى سورة غافر(٢) قوله تعالى : « الم تر الى الذين يجـــادلون فى آيات الله انى يصرفون . الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فســـوف يعلمون . اذا الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون » وجاء فى ســـورة المائدة(٣) قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . وجاء فى سورة الاسراء(٤) قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ان البسط فى قوله تعالى : « ولا تبسطها كل البسط » ومعناه اتجاه اليد بعيدا عن العنق ، يفيد عكس اتجاه اليد الذى يشير اليـــه قوله تعالى فى الآية الكريمة ذاتها : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » فينبغى أن يكون الغل جامعا لليدين مع العنق(٥) وقال تعالى

---

(١) آية ، ٢٩ .
(٢) آيات ، ٦٩ — ٧٢ .
(٣) آية ، ٦٤ .
(٤) آية ، ٢٩ .
(٥) درسنا آية سورة الاسراء فى دراستنا المتأملة لسورة الاسراء وهو تحت الطبع .

فى سورة الرعد(١) : « وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقال تعالى فى سورة سبأ(٢) : « وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون » وقال تعالى فى سورة الانسان(٣) : « انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » .

واذا كنا رجحنا أن طبيعة الغل أن يجمع اليدين والعنق ، وأن يشد اليدين اليه شدا ، ففى امكاننا ، مستفيدين مما جاء فى آية سورة غافر(٤) « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » أن نرجح أن السلاسل ترتبط بالأرجل بأكثر مما ترتبط بسواها . لقد جرت العادة بأن يرتبط السحب بالرجل (بكسر الراء) وحتى فى استعمالاتنا العادية نحن نراعى هذه الرابطة بين الرجل وعملية السحب فما أكثر ما نسمع مثل هذا القول ، تعبيرا عن الاستهانة بالشىء وتحقيره : سحبه من رجله . واذا كانت العلاقة بين عملية السحب وبين الرجل واضحة ، ففى امكاننا أن نفهم من قوله تعالى فى سورة غافر(٥) : « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » أن عملية سحب هؤلاء المجرمين فى الحميم انما تكون من أرجلهم التى قيدت حركاتها بفعل السلاسل . واذا كنا نقول : ان الغل يرتبط باليد أساسا ، وذلك بجعلها مغلولة الى العنق ، فلان يد الانسان فى سكونه وحركته ، قابلة لأن تكون فى هذه الحال، دليلا على الذل والهوان . واذا كنا نقول : ان السلسلة ترتبط بالرجل أساسا ، فلأن القدم يفترض فيها بقصد التنقل ، أن تكون قادرة على القيام بالقدر الضرورى من الحركة المقيدة ، ولا يتحقق ذلك الا بواسطة السلسلة ، التى تجمع بين قدرتها على جعل الأسير العانى قادرا على التحرك الضرورى ، لطواعية السلسلة ولينها ، وبين قدرتها على جعل هذه الحركة فى أضيق الحدود . انها حركة

---

(١) آية ، ٥ .
(٢) آية ، ٣٣ .
(٣) آية ، ٤ .
(٤) آية ، ٧١ .
(٥) آية ، ٧١ .

مقيدة . ومن هنا صح أن يطلق على السلسلة لفظة القيد ، لأنها تقيد الرجل عن الحركة التى لها تريد واليها ترتاح ، وعلى الغل ، لأنه يغل ويقيد تماما اليد المشدودة الى العنق ، ويحول بينها وبين الحركة التى يمكن الاستغناء عنها فى حق اليد بالكلية .

أما وقد أخذت زبانية جهنم المجرم أخذا عنيفا ، وأحاطت به ، وشدت يديه الى عنقه بالغل شدا . فقد بقى أن يقذف به فى الجحيم ، فى النار المحرقة ، كى يعانى حرها وأذاها . والى ذلك أشـــارت الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « ثم الجحيم صلوه » . يقال : صـــلى اللحم : القـــاه فى النـــار للاحراق(١) واذا كان الغـــل من نصيب اليد أساسا . وكانت السلسلة من نصيب الرجل أساسا . واذا كانت اليد قد نالت نصيبها ، فقد بقى للرجل أن تنال نصيبها، جزاء وفاقا . ولكن سلسلة الجحيم غير عادية ، اذ أنها لفرط طولها، قابلة لأن تلتف بالمجرم التفاف الأفعى . فكأنه أدخل فى أثنائها . قال تعالى : « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . وبهذه المناسبة ننبه الى أهم ما يلاحظ بشأن السلسلة . انهما شيئان التسلسل بمعنى اتصال حلقاتها . وطواعيتها للتثنى والالتـــواء . وهذا وليد اتصال الحلقات(٢) . ويقال : ســـلك يده فى الجيب وأسلكها ، أدخلها فيه(٣) والسلسلة معروفة . وهى حلق يدخل فى حلق على سبيل الطول(٤) .

فى الآية السابقة تقدمت الجحيم على جملة صلوه « ثم الجحيم صلوه » دليلا على فرط الاهتمام بطبيعة العذاب ونوعه ، فينبغى أن تكون التصلية فى الجحيم ، أى النار الشديدة الاحراق . وفى الآية الكريمة التى نحن بصددها تقدم تبيين طبيعة السلسلة على عملية السلك انها سلسلة غير عادية . ولهذا كانت عملية السلك ، بمعنى ادخال المجرم فيها جائزة . « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

---

(١) أنظر القاموس « صلى » .
(٢) أنظر اللسان « سلسل » .
(٣) أنظر القاموس « سلك » .
(٤) البحر المحيط ، ٣١٩/٨ .

والذراع مؤنث(١) وذرعها أى قياسها ومقدار طولها : سبعون ذراعا . يجوز أن يراد ظاهره من العدد ويجوز أن يراد المبالغة فى طولها . وان لم يبلغ هذا العدد . قال ابن عباس وابن جريج ومحمد ابن المنكدر : بذراع الملك . وقال الحسن : الله أعلم أى ذراع هى وقيل : بالذراع المعروف . وانما خاطبنا تعالى بما نعرفه ونحصله . فاسلكوه . أى أدخلوه . كقوله : فسلكه ينابيع(٢) والظاهر أن يدخله فى السلسلة . ولطولها تلتوى عليه من جميع جهاته فيبقى داخلا فيها مضغوطا حتى تعمه وأما «ثم» فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية ، وأنه أولا يؤخذ فيغل . ولما لم يعذب بالعجلة صارت له استراحة . ثم جاء تصلية الجحيم . فكان ذلك أبلغ فى عذابه اذ جاءه ذلك وقد سكنت نفسه قليلا ، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولا معذبا فى النار . لكنه كان له انتقال من مكان الى مكان ، فيجد بذلك بعض تنفس . فلما سلك فى السلسلة كان ذلك أشد عليه من العذاب ، حتى صار لا حراك له ولا انتقال ، وأنه يضيق عليه غاية . فهذا يصح فيه أن تكون ثم على موضوعها من المهلة الزمانية(٣) . وقال الزمخشرى(٤) . « سلكه فى السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة وجعلها سبعين ذراعا ارادة الوصف بالطول ، كما قال : « ان تستغفر لهم سبعين مرة » ، يريد مرات كثيرة لأنها اذا طالت كان الارهاق أشد . والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية . أى لا تسلكوه الا فى هذه السلسلة . كأنها أفظع من سائر مواضع الارهاق فى الجحيم . ومعنى «ثم» الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك فى السلسلة لا على تراخى المدة . وجاء فى

---

(١) البحر المحيط ، ٣١٩/٨ .

(٢) من الآية ٢١ فى سورة الزمر وهى كاملة « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب » .

(٣) البحر المحيط ، ٣٢٦/٨ .

(٤) الكشاف ، ٢٦٥/٣ .

تفسير القرطبى(١) : « وقيل تدخل عنقه فيها ثم يجر بها » . وسبق أن لاحظنا أن الغل قد ملأ المكان . بينما تبقى الرجل شاغرة ، كى تبدأ منها السلسلة عملها والتواءها .

ولم الأغلال فى أعناق المجرمين والسلاسل فى أرجلهم وفى النار يسجرون ؟ قال تعالى : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون » .

السياق يشير الى سببين مهمين فى الجـزاء العادل الذى ناله المشركون . وأول السببين أهمهما . وهما عدم ايمان المجـرم بوحدانية الله تعالى ، لذا هو يشرك به سواه . وعدم الحض على اطعام طعام المسكين(٢) وواضح أن السبب الأول ينبه الى حـق الله تعالى على العباد بأن يعبدوه وحده لا شريك له . وان السبب الثانى ينبه الى حق العباد بعضهم على بعض ، ووجوب تعـاونهم على البر والتقوى . ومثل هذا الجمع بين السببين يشير الى الحكمة فى الجمع فى الاسلام ، القرآن الكريم بخاصة ، بين الصلاة والزكاة . وقبض النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : الصلاة وما ملكت أيمانكم(٣) فاذا كانت الصلاة اتجاها الى الله تعالى مباشرة ، فان الزكاة وما فى حكمها ، اتجاه الى الله تعالى عن طريق الانسان . ويلاحظ أن الآية الكريمة الأولى : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم » تعليل على طريق الاستئناف وهو ابلغ . كأنه قيل : ماله يعـذب هذا العـذاب الشـديد فأجيب بذلك(٤) وعطف « ولا يحض » علـى « لا يؤمن » داخـل فى العـلة(٥) والحض التحريض والحث ... والطعام عبارة عن العين . وأضيف للمسكين للملابسة التى بينهما(٦) .

---

(١) ص ٦٧٥١ .
(٢) انظر البحر المحيط ، ٣٢٦/٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٤١٦/٤ .
(٤) الكشاف ، ٢٦٦/٣ .
(٥) البحر المحيط ، ٣٢٦/٨ .
(٦) تفسير القرطبى ، ٦٧٥٢ .

وفى قوله : « ولا يحض على طعام المسكين » دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين . أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينة له . والثانى ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ... وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالايمان . أفلا نخلع نصفها الآخر ؟(١) .

واذا كان ثمة سببان ، نص عليهما السياق ، دفعا بالمجرم الى مهاوى الردى ، فقد بنى عليهما نوعان من العقاب . واذا كان كل من السببين قد نصت عليه آية . فان كلا من العقابين قد نصت عليه آية ، قال تعالى : « فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين » . وقد أوضحت الآية الأخيرة : « لا يأكله الا الخاطئون » أن هذا العقاب جزاء وفاق سوء صنيع هذا المجرم فى الحياة الدنيا واصراره على الاستمرار فى الطريق الخاطئة ، رغم وضوح سبيل الحق وارشاد رسل الله تعالى اليها .

وأول ما يلاحظ بشأن نوعى العقاب أن كلا منهمامجانس للسبب الذى يقابله . ان كون المجرم ليس له يوم القيامة فى جهنم حميم ، لأن أخلاء الدنيا يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين . ويأتى على رأس القائمة ، المعبودون من دون الله تعالى . انهم لا يخذلون عابديهم فحسب ، بل يكونون عليهم ضدا . كما نص على ذلك القرآن الكريم فى أكثر من موضع . ما أشد حاجة المجرم يوم القيامة الى الحميم ، الى القريب الذى يرق له ويدفع عنه ، والى الصديق الذى يرق ويحترق قلبه له(٢) . ولكن أنى له ذلك وقد أشرك مع الله تعالى سواه . قال عز من قائل(٣) : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما » وقال(٤) : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

---

(١) الكشاف ٣/٢٦٦ وانظر البحر المحيط ٨/٣٢٦ فقد استفاد من الزمخشرى كثيرا .
(٢) انظر هنا تفسير القرطبى ص ٦٧٥٢ .
(٣) النساء ، ٤٨ .
(٤) النساء ، ١١٦ .

وان كون طعام هذا المجرم فى النار مقصورا على صديد اهل النار السائل من جروحهم وفروجهم كما قال ابن عباس(١) يعتبر جزاء وفاق عدم حثه على اطعام المسكين طعامه . وكان بعض اهل العربية من اهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو غسلين فعلين من الغسل من الجراح والدبر . وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين(٢) .

ومن الذى يأكل هذا النوع من الطعام ؟ اجابت الآية الكريمة التالية على ذلك . قال تعالى : « لا يأكله الا الخاطئون » والخاطئون جمع خاطىء بالهمز اسم فاعل من خطىء . وهو الذى يفعل ضد الصواب متعمدا لذلك . والمخطىء الذى يفعله غير متعمد (٣) . وعلى هذا يكون أكل هذا النوع من الطعام فى نار جهنم من نصيب الذين يشركون مع الله تعالى سواه . ومن نصيب الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويصرون على كل ذلك رغم وصول تعاليم الدين الذى ارتضى الله تعالى لعباده بواسطة رسل الله تعالى وبواسطة العلماء بعد ذلك الذين هم ورثة الانبياء . ان المصير المخزى والنهاية الأليمة من نصيب القوم المجرمين بعد ان قامت عليهم الحجة البينة بانهم كانوا يصرون على الحنث العظيم ، وعلى العمل بعكس تعاليم الدين الحنيف . وليس عدم الحث على اطعام المسكين المحتاج طعامه الا رمزا لعدم تعاون هؤلاء المجرمين على البر والتقوى ، بل تعاونهم على الاثم والعدوان . والعجيب ان هؤلاء المجرمين ، وفى مقدمتهم كفار مكة ، لا يتواصون باطعام مساكين المسلمين . لأن المساكين مسلمون . بينما هم يفخرون فى كل مناسبة اخرى بالكرم ، ويهدرون ثرواتهم فى سبيل الغى والشيطان . لقد اشارت سورة يس(٤) مثلا الى هذا الصنف من الناس . قال عز من قائل : « واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا فى ضلال مبين » .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٦٧٥٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، ٤١/٢٩ .
(٣) البحر المحيط ، ٢٢٧/٨ وانظر مثلا القاموس « خطأ » .
(٤) آية ، ٤٧ .

القسم السابع

القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين

الآيات (٣٨-٤٣)

القسم السابع :

قال تعالى : «فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون . انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » .

الآيتان الأوليان نفتا اقسام الله تعالى بما يبصر الناس وما لا يبصرون . وبما أن الهدف الأول لهذه السورة المكية ، حمل الكافرين ، وفى مقدمتهم المكيون ، على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والتصديق بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين ، وان القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل . فمن الجائز أن يقال : ان الخطاب فى هاتين الآيتين الكريمتين « فلا اقسم بما تبصرون . ومالا تبصرون » موجه فى المقام الأول الى كفار مكة . بدليل أن الآيات فى القسم بعد ذلك ، تنطبق على موقف هؤلاء الكافرين أشد انطباق .

معروف أن القسم قادر بطبعه على شد الانتباه شدا ، لأن العادة جرت ، فى حقنا نحن البشر ، أن نقسم حينما نريد أن نكسب ثقة السامع ، لقدرة القسم على الاشعار بايماننا بالمقسم عليه ، وحماستنا من اجله . أن اشارة الآيتين الكريمتين الى القسم : « فلا أقسم بما تبصرون . ومالا تبصرون » قادر على اثارة أمثال هذه الملابسات لدينا نحن البشر ، واثارة اهتمامنا وشد انتباهنا الى الموضوع شدا . ولكننا بصدد قسم منفى : « فلا أقسم » ان شد الانتباه الى القسم من ناحية ، وقد جرت العادة بأن يلجأ اليه بقصد كسب ثقة السامع واقتناعه ، ونفى هذا القسم من ناحية أخرى ، وهو أسلوب يكاد يكون جديدا على الأذن والفهم العربيين آنذاك ، قادران على اثارة الاهتمام بصفة اشد ، خاصة وأن النفى متقدم ، وكأنه هو المقصود أساسا . فهل فى امكاننا ، تجاه هذا الأسلوب الذى يكاد يكون فريدا أن نقول : ان النفى الذى جاء بين

يدى الاشارة الى القسم « فلا اقسم » كأنه يريد أن يقول ، للمنكرين فى المقام الأول ، وفى مقدمتهم كفار مكة ، ان القرآن الكريم ، الذى اختلفتم فيه كل هذا الاختلاف ، غاية فى وضـــوح كونه تنزيل رب العالمين ، لتواتر العقل والنقل على ذلك . وان تقرير هذه الحقيقة البينة بشأن القرآن الكريم ، لا يحتاج لأن تقسم الذات العلية على صـــحته ، بما يبصر الناس ومالا يبصرون — ومن حقـــه عز وجل وحده أن يقسم بما شاء من خلقه — لأنها فى نظر الحصيف الواعى الذى انتفع بنعمة العقل ، أوضح من أن تحتاج الى أى استدلال عليها من خارجها ، بما فى ذلك القسم الذى اعتاد البشر اللجـــوء اليه ، بقصد حمل السامع على الاطمئنان الى صحة المعلومات التى يدلى بها المقسم .

وتأمل رحمة الله تعالى الحليم الغفور ، وقد تجلت فى مخاطبة الخلق بطريقة تعتبر مظهرا من مظاهر تكريمه عز وجل لهم ، لأنها تخاطب عقولهم ، التى يجمل بهم أن ينتفعوا بها ويستعملوها أحسن استعمال ، كى ينتهوا حقا الى أنه ليست ثمة داع لأن يكون هناك اقسام على صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم فى اعـــلانه أن القرآن الكريم ، كلام رب العالمين ، لأن العقل حينمـــا يستعمل استعمالا صحيحا ، يستطيع أن ينتهى الى هذه النتيجة المنطقيـــة ، ولأن هذه الطريقة فى اشارتها الى القسم ، نبهت السامع الى أنه محل الاهتمام وموضع التقدير . فقد جرت عادة العرب ، الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، أن يلجأوا الى القسم ، مظهرا من مظاهر الاهتمام بمن يقسم من أجله . وان هذا التكريم للانسان فى الآيتين الكريمتين يلحظ بأكثر مما يلحظ واقع الانسان ، من زاوية العجز وقلة الحيلة ، اللتين تنبه اليهما الآية الثانية بخاصة « ومالا تبصرون » ان هـــذه الآية الكريمة تقرر حقيقة غاية فى الأهمية هى أن للنـــاس حدودا لا يستطيعون أن يتجاوزوها مهما كانت محاولتهم شديدة ، لأن ارادة الله سبحانه وتعالى شاءت ذلك . ومن مظاهر عجز الانسان وقلة حيلته ، أن ثمة العديد من مخلوقات الله تعالى ، التى لا يستطيع أن يراها . هذه حقيقة كان ينبغى للانسان الا ينساها أو يتناساها . ومن مظاهر ذلك ، أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلقى الوحى ، كان يرى مالا يرى الحاضرون ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى شاءت مظهرا من مظاهر تكريمه عز وجل لهذا الانسان ،

حينما يكون مؤمنا ، انه يستطيع أن يرى بروحه المشرقة ، وقلبه الطاهر ، وبصيرته النيرة ، وعقله المهتدى بنور الايمان ، ونفسه الصافية . أن يرى بعين روحه وقلبه وبصيرته وعقله ونفسه ، ما عجزت عن ادراكه عيناه ، وأن يصل الى ما عجزت عنه حواسه وجوارحه وأعضاؤه .

ان الطريق الى ذلك : بعون منه عز وجل وتوفيق ، سهل جدا ميسور . وكيف لا يكون الأمر كذلك وآن بين يدى البشرية وأمام عينيها كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، التى شاءت ارادته عز وجل ، أن تكون العناية بها على درجة رفيعة لا تستطيع المنى والأحلام أن تكون ارفع منها . وعلى الرغم من كل ذلك ، تشاء رحمة البر الرحيم ، أن تخاطب هذا الانسان الجحود فى الطريقة التى تنبهه الى مزاياه ، وتستحثه على أن ينتفع منها . وفى مقدمة ذلك العقل المدرك والبصيرة النيرة . قال تعالى : « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليل ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » .

وفى امكاننا أن نقول ، اضافة الى ما سبق ، ان الآيتين الكريمتين « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » تلفتان انتباه البشر الى ضرورة تقدير علمهم القطعى ، بأن الله تعالى وحده لا شريك له ، هو الخالق للسماوات والأرض ومن فيهن ، مما يرى ومما لا يرى ، مما يبصرون ومالا يبصرون . ويكون ذلك التقدير بالايمان أن الخالق الواحد هو المستحق أن يعبد وحده ، وأن القادر على ايجاد المخلوقات ابتداء قادر على ايجادها عودة . وبذلك تزول اكبر عقبة كأداء تحمل الكافرين على تكذيب الرسول العظيم والقرآن الكريم ، اللذين يقرران بوضوح تام أن الناس لم يخلقوا عبثا . وأن ثمة حياة أخرى وحسابا ، ثوابا وعقابا .

فاذا تحولنا الى الآية الكريمة التالية : « انه لقول رسول كريم » تبينا أنها مرتبطة تمام الارتباط بسابقتها ، ليس لمجرد أن هذه المجموعة من الآيات تتحدث فى موضوع بعينه ، وهذا فى حد ذاته شىء عظيم ، ولكن لأن هناك أيضا تجانسا فى الاتجاه ، وترابطا

بين الأجزاء . فاذا كانت الآية الكريمة تنص على ان هذا القـــرآن الكريم ، انما يقوله ، على جهة التلقى والتلقين ، رسول من الملائكة كريم الى رسول من البشر كريم ، فان هذا الرسول الـــكريم من الملائكة ، تنطبق فى حقه الآيتان الأوليان « فلا اقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » انه باختصار ، يبصره المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا يبصر الآخرون .

ونتحول الآن الى الآيتين الكريمتين التاليتين . قال تعالى : «وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون» ونحب ابتداء أن نبين أن أولى الآيتين : « وما هو بقـــول شـــاعر قليلا ما تؤمنون » تشير الى شيئين ، احدهما مرغوب عنه ، وهو اتهام الرسول الكريم بانه شاعر ، وبأن القرآن الكريم ضرب من الشعر ، وثانيهما مرغوب فيه ، بل انه الهدف الأكبر لانزال القرآن الكريم ، وارسال خير الأنام صلى الله عليه وسلم ،الا وهو الايمان فى أعلى درجاته . وقد اخطأ المكذبون تماما هذا الهدف . ويلاحظ أن الشيء المرغوب عنه يتصل به هوى النفس وكذب الخيالوانفلات المشـــاعر . وأن الشيء المرغـــوب فيه يتصـــل به ايمان القلب ، ورجاحة العقل ، واطمئنان النفس وصفاء السريرة ، ونقاء الضمير . ان الخصال المرغوب عنها فى الآية الكريمة ، هى من متعلقات الشعر الذى يعتبر فى أحسن حالاته مجالا خصبا للخيال وليس للواقع، حتى جاز فى حقه القول : أعذب الشعر أكذبه . وليس المراد بطبيعة الحال الكذب الذى هو عكس الصدق ، انما المراد أنا لا نشترط دائما أن يكون كل ما يقال من شعر له رصيد من الواقع والحقيقة ، انما يكفينا أن يرتاده الخيال وتتجاوب معه النفس .

أين الخيال المجنح والقول دون الفعل من الحق الخالص الذى نزل به القرآن الكريم ومن أجله جاء قوله تعالى فى سورةالاسراء(١): « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » بينما جاء عن الشعراء قوله تعالى(٢): « والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر أنهم فى كل واد يهيمـــون . وأنهم يقولون مالا يفعلون » . وحينما يفســـح للشعر مجـــال فى

---

(١) آية : ١٠٥ .
(٢) الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦ .

الاسلام ، فما ذلك الا لانه شعر ينبغى أن يأخذ من الحق ومن الايمان نصيبا . ولهذا جاء فى السورة مباشرة استثناء لنوع معين من الشعراء . قال تعالى(١) : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ان الآية الكريمة تنفى عن الرسول الكريم كونه شاعرا ، وعن القرآن الكريم صفة الشعر . وان العرب ، وفى مقدمتهم كفار مكة، أعرف الناس بالشعر فكيف سمحوا لانفسهم أن يخلطوا بين القرآن الكريم كلام رب العالمين المعجز ، وبين الشعر الذى لهم فيه باع طويل . لقد كان الأولى بهم أن يهجروا الطريق الخاطىء الذى تقول به النفس الأمارة بالسوء من الزعم بأن القرآن الكريم ضرب من الشعر ، وأن يتحولوا الى طريق العقل الرحيم والفهم الصحيح ، كى ينتهوا الى الايمان الكامل بالله تعالى ربا ، وبالاسلام دينا ، وبالقرآن اماما ، وبالرسول الكريم سراجا منيرا . ان المطلوب من كل الكافرين وفى مقدمتهم المكيون أن يكونوا أكثر الناس ايمانا : فهذه هى أمنية كل رسول لله رب العالمين ، وكل الدعاة الى الله تعالى ، لكنهم ، يا حسرة على العباد ، كانوا أقل الناس ايمانا ، لأنهم اتبعوا الظن وما تهوى الأنفس فاعتبروا القرآن الكريم ضربا من الشعر . « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٢) « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٣) « وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون»وانتصب قليلا على أنه صفة لمصدر محذوف أى تؤمنون أيمانا قليلا(٣) ونحن نميل الى اعتبار « ما » فى قوله تعالى : « قليلا ماتؤمنون » نافيه ودافعنا الأكبر لهذا الرأى أن الآية الكريمة ابتدأت بما النافية ذاتها : « وما هو بقول شاعر » وبذلك يكون ثمة تجانس فى الاتجاه ، بين صدر الآية وعجزها . فاذا كان صدرها ينفى كون القرآن الكريم قول شاعر ،

---

(١) الشعراء ، ٢٢٧
(٢) محمد ، ٢٤ .
(٣) النساء ، ٨٢ .
(٤) أنظر هنا البحر المحيط ، ٣٢٨/٨ .

لأن الذين يتبعون الرسول الكريم هم المهتدون المتقون ، فان عجزهم يعيب على الكافرين عدم ايمانهم . ان ايمانهم ليس قليلا كى يكون ثمة أمل مستقبلا أن يكون ايمانهم كبيرا . انما ايمان القوم مفقود أساسا ، لأن قليل الايمان المأمول مفقود . هذه هى الطامة الكبرى، والبلية العظمى . وبديهى أن يكون الانكار على الكافرين موقفهم السيء من الايمان، يراد منه أن يغير القوم من موقفهم بطرد الهوى واحتضان الحق ، فان الحجة عليهم قائمة ، فقد بعث الله تعالى خير رسله وأنزل عليه أشرف كتبه بلسان عربى مبين . هذا الى أن رب العزة قد تكفل بحفظ كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فاذا تحولنا الى الآية الكريمة التالية : « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » تبينا أنها من الوجهتين الصوتية والمعنوية على غرار الآية الكريمة السابقة . أما الوجهة الصوتية فهذا أوضح من أن ينبه اليه

« وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون .

ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون »

واللطيف أن صدر الآية الأولى ، اذا كان قد زاد على صدر الآية الثانية باسم الضمير المنفصل « هو » فان جملة « تذكرون » فى عجز الآية الثانية ، تحتاج الى وقت أطول من الوقت الذى تنطق فيه الجملة التى تقابلها فى الآية الأولى : « تؤمنون » فثمة قدر كبير من التوازن الصوتى لا يتوقع أكثر منه ، فى كلام ليس من الشعر فى شيء ، وأقرب الى كونه نثرا .

وأما من الوجهة المعنوية ، فان حديث الآية الكريمة عن الشق الثانى من الفكرة ، وقد عرضت الآية السابقة لشقها الأول ، هو الذى جعل الصياغة تكاد تكون واحدة فى الآيتين الكريمتين . وقد نجم من ذلك كون هذه الآية الكريمة ، وذلك على غرار الآية السابقة، تشير الى شيئين ، أحدهما مرغوب عنه وهو اتهام الرسول الكريم بأنه كاهن وبأن القرآن الكريم ضرب من سجع الكهان . وثانيهما مرغوب فيه وهو التذكر .

واذا كان الرباط فى الآية السابقة ، بين الشيئين ، المرغوب عنه، والمرغوب فيه هو الرباط بالتضاد بين هوى النفس المرغوب عنه ، وامتناع العقل المرغوب فيه ، بين الخيال والحقيقة ، فان شيئا من هذا القبيل يقال بشأن الآية الكريمة:« ولا بقول كاهن قليلاماتذكرون» ويبدو ذلك جليا بالمقارنة مثلا بين جملة تكهن وتذكـــر . ان جملة تكهن تتعلق باستكناه الغيب فهى أشد ميلا الى المستقبل . يقال : تكهن تكهنا اذا قضى له بالغيب ، فهو كاهن(١) . وان جملة تذكر تتعلق بأخذ العظة والعبرة ، عن طريق استحضـــار الذكرى ، فهى أشد ارتباطا بالماضى ، اذن نستطيع أن نقول بشأن هذه الآية الكريمة ماقلناه بشأن الآية السابقة : ان الرباط بين الشيئين او الفكرتين فى الآية الكريمة هو الرباط بالتضاد بين هوى النفس المرغوب عنه وامتناع العقل المرغوب فيه . لقد كان هوى كفار مكة أن يتهموا الرسول الكريم بأنه شاعر مرة ، وبأنه كاهن أخرى ، مع أن العقل كان يقتضيهم ألا يندفعوا مع النفس الأمارة بالسوء ، لان لديهم العقل الذى من الله تعالى به عليهم ، والذى يعرف يقينا ان القرآن الكريم ليس من الشعر ولا نوعا من التكهن ، لأن الشعر ببحـــوره المختلفة ، وقوافيه المتنوعة ، مسرح خيال خصب لنفس متدفقة ، ولأن سجع الكهان مسرح خيال خصب لنفس متشوفة . ان نقطة الخطأ التى انطلق منها الادعاء بأن القرآن الكريم ضرب من الشعر، هى نقطة النفس الأمارة بالسوء ، التى كانت من القوة لدرجة أنها عطلت قوة العقل تماما . وظلت هذه النفس الأمارة بالسوء تنظر الى القرآن الكريم من زاوية الفهم الذى تشبعت به فى حق الشعر. وبذلك ضيعت هذه النفس أثمن فرصة كان ينبغى أن تهتبل ، الا وهى فرصة الايمان الذى سدت كل المنافذ اليه بتعطيلها العقل عن الحركة فالعمل .

وان نقطة الخطأ التى انطلق منها الادعاء بأن القرآن الكريم ضرب من التكهن ، هى نقطة النفس الأمارة بالسوء أيضـــا ، التى ظلت تنظر الى القرآن الكريم من زاوية الفهم الذى تشبعت به فى حق الكهانة وسجع الكهان . انها تعرف الكهانة بأنها ضرب من التكهن بالمستقبل . فى كلام مسجوع . فنظرت الى القرآن الكريم من هذه الزاوية بالذات ، زاوية المستقبل الذى لا يعلمه الا الله تعالى .

---

(١) أنظر القاموس « كهن » .

وبذلك ضيعت هذه النفس الأمارة بالسوء ، أثمن فرصة كان ينبغى أن تحرص هى على السعى الحثيث اليها ، ألا وهى فرصة التذكر وأخذ العظة والعبرة من الماضى ، والعمل وفق الذكرى ، فى الحاضر والمستقبل من أجل ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود . ان القرآن الكريم منهج كامل للحياة ، حياة العمل والكدح التى تعتبر طريقا للحياة الأخرى الخالدة ، حياة الجزاء الأوفى . ما أشد غفلة هؤلاء الكافرين وأمثالهم ، لأنهم اشتروا الفانية بالخالدة . والسبب أنهم انساقوا وراء أنفسهم الأمارات بالسوء ، فضاع عليهم الايمان، لأنهم نظروا الى القرآن الكريم على أنه ضرب من الشعر . وضاعت عليهم الذكرى ، لأنهم نظروا الى القرآن الكريم على أنه ضرب من الكهانة . ومن هنا يتبين خطأ هؤلاء وأمثالهم ، وضرورة العودة الى الايمان والذكرى . ومن هنا يتبين شىء من اعجاز القرآن الكريم وجمعه العجيب التوازن بين القدرة على ارضاء العقل واشباع النفس . كما يتبين العلاقة المتينة بالتضاد بين الفكرتين فى الآيتين الكريمتين . فلا يمكن بحال من الأحوال مثلا ، أن نضع القول : « قليلا ما تؤمنون » موضع القول : « قليلا ماتذكرون » . وما قيل عن ما النافية ، فى قوله تعالى : « قليلا ما تؤمنون » يقال هنا .

وقد ختمت آيات القسم : « تنزيل من رب العالمين » بتعيين المصدر الحقيقى لهذا القرآن الكريم ، الذى تحدى به رب العزة ويتحدى الثقلين ، الانس والجن ، بأن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله . ان هذا القرآن الكريم ليس شعرا ولا سجع كهان ولا أى شىء من ضروب القول التى تنسب الى البشر لأن مصدره ليس الأرض ، لكن السماء « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين »(١) فعلى الجميع أن يؤمنوا به ويتمشوا بتعاليمه التى تقود الى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الشعراء ، ١٩٢ — ١٩٥ .

القسم الثامن

القسم الثامن :

القرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، نزل به جبريل عليه السلام، الروح الأمين ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بلسان عربى مبين . فقام عليه الصلاة والسلام باعلانه على الملأ . لقد اقتصر دوره عليه الصلاة والسلام ، بشأن القرآن الكريم على التلقى فالاعلان . والى ذلك أشارت الآيات التالية . قال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

معروف أن «لو» حرف امتناع لامتناع(١)فالذى تتحدث عنه آيات القسم ممتنع الوقوع ، لامتناع السبب والموجب . وان هذه الطريقة فى التعبير ، لتدل على خطورة القضية التى يعرض لها . ومع ذلك فان كفار مكة يلقون الحديث بشأنها على عواهنه ، منساقين مع انفسهم الامارات بالسوء . ان على كل الناس أن يفهموا خطورة هذه القضية لأنها تتعلق بالسبب الذى من أجله خلق الله تعالى الخلق، الا وهو العبادة التى ينبغى أن تكون خالصة لله تعالى وحده لا شريك له ، والعقيدة التى ينبغى أن تكون سليمة من كل شائبة ولا يتحقق شيء من ذلك الا اذا كان النبع ، وهو القرآن الكريم فى المقام الأول ، صافيا . وكيف يصح أن يتهم الكافرون الرسول الكريم بأنه نقول على الله تعالى القرآن الحكيم بينما الرسول الكريم — ويعرف اهل مكة ذلك من قبل — هو من هو عظمة خلق وأمانة ! وكى يستقر فى روع البشر خطورة هذه القضية المصيرية التى لا يقدرها الكافرون حق قدرها ، يتم الحديث عن مجموعة من الوقائع ، المتنعة الوقوع فى حقه صلى الله عليه وسلم لامتناع سببها او موجبها ، الذى اتهم به الكافرون المصطفى صلى الله عليه وسلم ، من كونه يتقول القرآن الكريم ويتكلفه وينسبه الى رب العالمين .

---

(١) انظر مثلا القاموس المحيط « لو » .

فما معنى التقول ؟ أن يقول الانسان عن آخر انه قال شيئا لم يقله(١) أى أنه افتعال القول لأن فيه تكلفا من المفتعل . وسمى الأقوال المتقولة أقاويل ، تصغيرا بها وتحقيرا ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك . كأنها جمع أفعولة من القول(٢) وذهب أبو حيان فى البحر المحيط(٣) الى أن الأقاويل جمع الجمع وهو أقوال ، كبيت وأبيات وأباييت . ويلاحظ أن الآية الكريمة تشير الى بعض الأقاويل وليس اليها كلها . فهل وعى الكافرون ذلك وكفوا عن اتهام المصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه متقول القرآن الكريم كله ، مع علمهم القطعى ، بأن هذا الكلام ليس مما يستطيع البشر الاتيان بمثله ، وبأنه لا يمت بصلة الى أى نوع من فنون القول التى هم لها عارفون وفيها حاذقون وبخاصة الشعر وسجع الكهان .

وبما أن السبب ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أحكم الحاكمين . فما هى المسببات الممتنعة الوقوع تبعا للسبب الممتنع ؟ انها التى أشارت اليها الآيات التالية . قال تعالى : «لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

ان هذه الآية الكريمة : « لأخذنا منه باليمين » تشير الى أول المسببات الممتنعة الوقوع ، وهو أخذه عز وجل ، بمعنى انتقامه منه صلى الله عليه وسلم بقدرته وعزته عز وجل . لقد جرت العادة بأن يستعمل العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم اليمين دليلا على القوة وعلى اليمن والبركة على نحو ما مر من قبل . ومن الاستعمالات دليلا على القوة قول الشماخ :

اذا مراية رفعت لمجد ، تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة(٤) وان القرآن الكريم ، الذى نزل بلسان عربى مبين ،

---

(١) البحر المحيط ، ٣٢٩/٨ .
(٢) الكشاف ، ٢٦٦/٣
(٣) ٣٢٩/٨ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٥٤ وعرابة اسم رجل من الانصار من الاوس . القرطبى .

يستعمل . دليلا على القدرة والقوة ، ذات اللفظة التى يستعملها العرب فى حديثهم للغرض ذاته . ان لسان حال هذه الآية الكريمة — والآيتين التاليتين كذلك — يقول : على كل انسان أن يعرف الحدود التى لا ينبغى له أن يتخطاها ، وفى المقدمة كفار مكة ، الذين يهرفون بما لا يعرفون ، باتهامهم له صلى الله عليه وسلم بأنه متقول القرآن الكريم ، كلام رب العالمين .

ولا يقف الأخذ — بمعنى الانتقام — عند حد . انما يتجاوزه الى المسبب الثانى الممتنع وقوعه فى حقه صلى الله عليه وسلم لامتناع السبب ، وهو القتل شر قتله . قال تعالى : « ثم لقطعنا منه الوتين » وينبغى أن يكون للام التى تفيد التوكيد ، والتى جاءت فى كل من الآيتين الكريمتين : « لأخذنا » « لقطعنا » دورها الذى يزيد الى صرامة الموقف جديدا من الصرامة .

والوتين ، قال ابن عباس : هو نياط القلب ، وهو العرق الذى القلب معلق فيه(١) وللزمخشرى اجتهاد لطيف وفهم آخر لعملية الأخذ باليمين فالقتل يستحق أن ينوه به . يقول(٢) : « والمعنى. ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته . وخص اليمين على اليسار لأن القتال اذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره. واذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف، أخذ بيمينه ومعنى: «لأخذنا منه باليمين». لأخذنا بيمينه . كما أن قوله : « لقطعنا منه الوتين ، لقطعنا وتينه ». وكما قال أبو حيان(٣) : « والمعنى لو تقول علينا لأذهبنا حياته معجلا » .

وهذه هى الآية الأخيرة فى القسم . قال تعالى : « فما منكم من أحد عنه حاجزين » . ان الآية الكريمة ، تشير الى عجز البشر

---

(١) تفسير ابن كثير ، ٤/٤١٧ .
(٢) الكشاف : ٣/٢٦٦ .
(٣) البحر المحيط ، ٨/٣٢٩ .

قاطبه ، وفى مقدمتهم كفار مكة الذين يتهمون المصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه تقول القرآن الكريم ، عن أن يحولوا بين المصطفى صلى الله عليه وسلم وبين عقاب الله تعالى الذى لا يرد ، فيما لو فرض أن التقول قد وقع ، وفيما لو فرض — وهذا داخل فى مجموعة الأمور الممتنعة التى يجمع السياق بينها فى نسق . وهذا مظهر من مظاهر اعجاز القرآن الكريم — أنهم هم الذين تغير موقفهم من مناصبة الرسول الكريم العداء ، الى محاولة الدفاع المستميت عنه . ان هذا القرآن الكريم يجب أن يكون كله من عند الله تعالى، فلا يد لمخلوق ، بما فى ذلك الرسول الأمين ، فى أى حرف منه ، هكذا شاءت ارادة الله تعالى . وهكذا سيبقى الى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها . وبهذه المعانى أوحى التعبير الصارم ، الذى بلغ من عنفه وشدته فى الحق انه تحدث عن خير خلق الله تعالى كلهم من ناحية وفى المقابل عن شرار الخلق . ان القرآن الكريم كلام رب العالمين وكفى . على كل الناس أن يعوا هذه الحقيقة جيدا ، ويقدروها حق قدرها ، ويتمشوا بموجبها . قال عز من قائل(١):«ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » .

وان القول : « من أحد » فى الآية الكريمة « فما منكم من أحد عنه حاجزين » كأنه ينفى الجزء من الناس . وان نفى الجزء أبلغ من نفى الكل . واحد فى لفظ واحد ، ردا على معناه . لأن معناه الجمع . والعرب تجعل أحدا للواحد والاثنين والجمع . كما قيل : «لا نفرق بين أحد من رسله» . وبين لا تقع الا على اثنين فصاعدا(٢). والحجز : المنع(٣) أى فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه اذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا . بل هو صادق بار راشد . لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات(٤) .

---

(١) الاسراء ، ٩ .
(٢) تفسير الطبرى ، ٤٣/٢٩ .
(٣) تفسير القرطبى ، ٦٧٥٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ، ٤١٧/٤ .

القسم التاسع

القرآن الكريم تذكرة للمتقين

الآيات (٤٨-٥٢)

القسم التاسع :

اذا كانت السورة الكريمة المكية ، قد اعتبرت عدم ايمان الكافر فى الحياة الدنيا ، بالله العظيم ربا ، وعدم اطعامه المسكين ، سببين مهمين لدخوله النار يوم القيامة وكون طعامه من غسلين لاصراره على الحنث العظيم ، فقد اتخذت من ذلك منعطفا واضحا لمخاطبة كفار مكة ومن شاكلهم ، بأن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين . وبما أن القرآن الكريم العماد الأكبر والأول للعقيدة الاسلامية فينبغى ان يكون صافيا الى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها ، فقد عبر عن حفظ الله تعالى كتابه العزيز ، بطريقة قادرة على أن تحمل كل ذى لب على الايمان بأن القرآن الكريم بمنأى عن أى تحريف فهكذا شاءت ارادة الله تعالى له أن يكون . وتلك الطريقة فى القسم السابق ، تجمع بين عدد من الامتناعات ، لكون السبب الذى تقوم عليه ، من كونه صلى الله عليه وسلم يتقول على الله تعالى بعض الأقاويل ، ممتنع الوقوع .

وبما أن الرسول الكريم أحرص خلق الله تعالى على أن يدخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا . وبما أن للناس موقفين من دعوة هذا الرسول الكريم الذى كان خلقه القرآن ، موقف المؤمنين المتقين، وموقف الكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى ، لذا كان القسم الأخير من السورة المكية الكريمة ، مقررا هذا الواقع ، اذ كان الحديث فى الآيات الخمس ، موجها للمكذبين الكافرين بأكثر منه للمتقين ، لأن المكذبين الكافرين قبل الهجرة ، أكثر عددا وعددة ولأن المكى من القرآن يعنى بأسس العقيدة . وبين هذا القسم حقيقية كون القرآن الكريم حق اليقين وختم برسم طريق الفلاح للعباد بأن يسبحوا باسم ربهم العظيم . قال تعالى : « وانه لتذكرة للمتقين . وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

ان الآية الكريمة الأولى : « وانه لتذكرة للمتقين » تقرر حقيقة الدور الذى يقوم به القرآن الكريم فى حق المؤمنين المتقين . ولايخفى رباط الذكرى الدى يربط هذا القسم بسابقه وذلك فى قوله تعالى: « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنـــون . ولا بقول كاهـــن قليلا ما تذكرون » ان القرآن الكريم تذكرة دائمة للمؤمنين المتقين وعظة . ومتى يتسنى للقرآن الكريم أن يفعل فى البشر فعله العجيب الذى سبق أن قام به مثلا فى فجر الاسلام حينما شاءت ارادة الله تعالى أن تخرج بهذا القرآن خير أمة أخرجت للناس ؟ حينما تتضافر نوايا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على التعاون على البر والتقوى، وحينما تترجم تلك النوايا الطيبة ، وفى مقدمتها الاهتداء بنور القرآن الكريم ، الى عمل . وتأتى مسئولية العلماء وهم ورثة الأنبيـــاء ، فى المقام الأول ، لأنهم ينبغى لهم أن يكونوا الأسوة الحسنة للتلامذة والأتباع فى تلاوة القرآن الكريم وتدبره وتحويل العلم الى عمل . هكذا كان المسلمون فى الصدر الأول ، وهكذا ينبغى أن يكونوا دائمـــا .

ويلاحظ أن الآية الكريمة : « وانه لتذكرة للمتقين » تتحدث عن المؤمنين المتقين ، من الزاوية التى تتمشى مع السورة الـــكريمة ، وبخاصة هذا القسم الأخير . انها تنص على التذكر والاتعاظ وأخذ العبرة . وحينما تكون تلك صفات المؤمنين ، فانهم بعون من الله تعالى وتوفيق ، سيكونون دائما وابدا فى دائرة المتقين . بعيدين كل البعد عن خطر الانحراف عن سواء السبيل فالسير فى طريق اللاهين العابثين المكذبين الكافرين . والى هؤلاء تحول الحديث فى الآيتين الكريمتين بخاصة . قال تعالى : « وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين » .

ان أولى الآيتين الكريمتين : « وانا لنعلم أن منكم مكذبين » اذا كانت تعنى المكذبين ، بقصد أن يتحولوا مصدقين متقين . فان طريقها فى الحديث عن المكذبين مغرية على هذا التحول ، من التكذيب الى التصديق . لأنها تقول لمن توجه اليهم الخطاب : ان منكم المكذبين ومنكم المصدقين فكأن الراشدين الذين انتفعوا بنعمة العقل ، ومن ذلك تدبر الآيات السابقة فى هذه السورة الكريمة مثلا ، بدا لهم أنه من غير اللائق بهم أن يستمروا مكذبين ، سيرا مع أنفسهم الأمارة

بالسوء وتعطيلا لنعمة العقل والارادة اللتين خص بهما الانسان . ولو فرض أن بعض المكذبين غلبت عليهم شقوتهم فان مصيرهم معروف ، شانهم فى ذلك شأن ثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وقوم نوح ومن اليهم من الذين ذكرتهم السور الأخرى فى القرآن الكريم . انهم اذا كانوا قد كذبوا بالبعث فان الحاقة آتية لا ريب فيها ، وان الله تعالى سيبعث من فى القبور ويومها تكون حسرة الكافرين لا مثيل لها من اجل تفريطهم فى جنب الله وتكذيبهم رسوله وانكارهم قرآنه واعتبارهم الحياة الدنيا غاية المنى ونهاية المطاف . ان حسرتهم لا مثيل لها لأن الحق قد وصل اليهم فابعدوه بينما أيقن به المؤمنون المتقون . فكان ثواب المؤمنين المتقين كبيرا . وكان عذاب الكافرين المكذبين عظيما . وان على كل الناس ان يعلموا أن القرآن الكريم كلام رب العالمين ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو لب اليقين وحقيقته وعين الحق وجوهره. والى ذلك اشارت الآية الكريمة التالية : « وانه لحق اليقين » . يقول الزمخشرى(١) : « وان القرآن لليقين حق اليقين ، كقولك : هو العالم حق العالم وجد العالم . والمعنى : لعين اليقين ومحض اليقين » . على المؤمنين المتقين أن يزداد يقينهم بذلك قوة الى قوته. وعلى المكذبين الكافرين أن يكفوا من غربهم وينتهوا عن غيهم ، وينتفعوا من نعم الله تعالى عليهم بتدبر القرآن الكريم .

وحينما تكون القلوب ليست ذات اقفال . والعقول ليست ذات اغلال . والارادات ليست ذات قيود . فان الحق ، سيجد بعون من الله تعالى وتوفيقه الى عقل الانسان وقلبه سبيلا . والنور الى بصيرته طريقا . ووقتها يتبين ذلك الانسان الحكمة من وجوده .

ان الانسان انما خلق بقصد أن يعبد الله تعالى وحده لاشريك له بمفهوم العبادة الواسع فى الاسلام ، والذى تعتبر أركان الاسلام الخمسة دعائمه الكبرى . وان أول هذه الأركان متعلق بتوحيد الله تعالى قال عز من قائل(٢) : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر

---

(١) الكشاف ٣/٢٦٧ .
(٢) النساء ، ٤٨ .

ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما ».
والى هذا الركن أشارت الآية الأخيرة فى السورة الكريمة : «فسبح باسم ربك العظيم » والخطاب موجه الى كل الناس . فواجبهم أن يسبحوا بحمد ربهم فلهذا خلقوا وسيثابون على ذلك يوم القيامة دار الجزاء . فاذا تهاون البعض فى هذا الواجب أو جحده وقد قامت عليه الحجة ، فان نصيبه من عذاب النار كبير . ومن الجائز أن يجمع له الى عذاب الآخرة عقوبة فى الدنيا على غرار الجماعات الضالة التى أشارت اليها السورة الكريمة والى مصيرها . قال عز من قائل : « وانه لتذكرة للمتقين . وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

رأى فى قضية الغرانيق

توطئة :

فى ذى الحجة من عام ١٣٩٥ هـ ديسمبر عام ١٩٧٥ م عقدت كلية جلبرن للدراسات العليا التربوية بأستراليا مؤتمرا ثقافيا هدفه الأول اظهار الدور الذى قامت به الحضارة العربية الاسلامية . وقد تسنى لى الاسهام فى هذا المؤتمر باعتبارى آنذاك استاذا زائرا بجامعة سيدنى بأستراليا من قبل جامعة الملك عبد العزيز مدة عام واحد . ولما كان بحثى الذى القيت فى المؤتمر حول نظم القرآن الكريم ، ولما كانت قضية الغرانيق قد جعلها أحد الأساتذة المشاركين فى المؤتمر موضوع مقاله ، من زاوية اثبات البعض لها فقد سألنى رئيس المؤتمر د. محمد على العريان رئيس قسم الدراسات الحضارية والدولية بجامعة جولبرن ، أن ابين رايى فى القصة ، ان كل لى رأى واضح فيها واعطانى نسخة من المقال الذى ألقى فى المؤتمر . ورغم فقر أستراليا فى جانب المصادر الاسلامية ، فقد أمكن كتابة مقال ، أدونه فى الصفحات التالية على صورته الأصلية . ورغم كون الفرصة قد أتيحت آخيرا لتوسيع دائرة الأطلاع ، وبخاصة ما كتب القاضى عياض فى الشفاء ومحمد حسين هيكل فى حياة محمد فى الموضوع ، فانى لم أجد لدى الجديد الذى يمكن أن يضاف . ولما كانت قصة الغرانيق ، ترفضها سورة الحاقة ، التى تقرر فى اقسامها الأخيرة كون القرآن الكريم كلام رب العالمين ، ولا دخل للبشر ، وفيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم، فى حرف واحد منه ، فقد أحببت أن أذيل دراستى المتأملة بهذه الدراسة لفرية الغرانيق . سائلا الله تعالى دائما وأبدا العون والتوفيق ، انه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

من القضايا المتعلقة بالقرآن الكريم ، والتى كثر حولها الحوار، قضية « حديث الغرانيق » التى قيل بشأنها ان الشيطان الرجيم، استطاع أن يجرى على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، أثناء تلاوة سورة النجم ، كلمتين ليستا منها . فبعد أن تلا قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » (١) زعموا أنه جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن شفاعة هذه الأصنام ترتجى ، وأن جبريل عليه السلام ، نبهه صلى الله عليه وسلم الى ذلك ، فحذف ما ليس من القرآن . وتمضى الرواية فتقول: انه نزل فى هذا الشأن الآية الكريمة الثانية والخمسون من سورة الحج ، تسرى عنه صلى الله عليه وسلم (وينبغى أن يلاحظ أن مجموعة من الآيات لاحقة لهذه الآية ، كلها مرتبط أشدالارتباط بها. ولكن الرواية تقول ان الآية المذكورة هى التى نزلت فقط !) وذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » .

لقد وقف الدارسون من الروايات المختلفة لهذا الحديث موقفين مختلفين ، يجمع بينهما قول السهيلى فى الروض الأنف مثلا(٢) « وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة . ومن صححه قال فيه أقوالا » والمستشرقين ميل نحو قبول هذا الحديث وتفسيره

---

(١) آية ، ١٩ ، ٢٠ .
(٢) ١٢٦/٢ .

بأنه محاولة قصيرة الأجل من جانبه صلى الله عليه وسلم للتوفيق بين الدين الجديد وبين رغبات كفار مكة الأثرياء .

ونحن من جانبنا سنحاول إن ندلى فى الموضوع بدلونا وننظر الى حديث الغرانيق نظرة موضوعية ، ننتهى معها ان شاء الله تعالى الى ما نعتقد أنه الحق .

المعروف أن النظرة المتأملة الى اية حادثة ، تقتضى النظر الى راويها أو سلسلة رواتها ، وهو ما يسمى بالسند . والى موضوعها، وهو ما يسمى بالمتن . ونحن هنا سننظر الى هذه الحادثة من :

(أ) زاوية السـند .

(ب) ومن زاوية المتن . وهذه بدورها تتفرع الى نظـرتين . احداهما تتعلق بالأشكال التى جاءت فيها الاضافة . والأخرى تتعلق بمضمون الحادثة ككل .

(أ) السـند :

من المعروف ان نقد سلسلة السند أو نقد الرجال ، فن سبق اليه المسلمون ، حيث قد درسوا حياة رواة أحاديث المصـطفى صلى الله عليه وسلم من نواحيها المختلفة ، ووضعوا الرجال ، وفق قواعد واضحة ثابتة ، فى مواضعهم ، من حيث الضبط والأمانة وما الى ذلك . وهذا الفن أحد فروع علم مصطلح الحـديث . فما هى ملاحظات هؤلاء العلماء على سلسلة سند الحديث المعروف بحديث الغرانيق ؟ قال ابن كثير فى تفسيره(١) بشأن سلاسل سند هذا الحديث : « ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صـحيح . والله أعلم » . وقال السـهيلى فى الروض الأنف(٢) : « وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة . ومن صححه قال فيه أقوالا .... والحديث على ما خيلت ، غير مقطوع بصحته . والله أعلم » . ويقول سـيد قطب فى ظلال القرآن(٣)

---

(١) ٣/٢٢٩ .
(٢) ٢/١٢٦ .
(٣) ص ٢٤٣٢ .

بشأن الحديث : « وهو من ناحية السند واهى الأصل . قال علماء الحديث : انه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة» . وقال أبو بكر البزار : « هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره » .

وحينما نعلم أن قيمة الحديث ، انما تستمد من صحة السند والمتن معا ، ونقف على آراء هؤلاء العلماء فى سلاسل سند هذا الحديث ، ندرك حتى الآن ، أن احدى القائمتين اللتين يعتمد عليهما الحديث واهية . ان هذه قاعدة عامة بشأن كل حديث يتصل به صلى الله عليه وسلم . فكيف اذا كان هذا الحديث غاية فى الخطورة، كحديث الغرانيق ، لعلاقته بالنص القرآنى ، وقد تكفل رب العزة بحفظه ، حيث قال فى محكم كتابه(١) : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وبعصمة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عز من قائل فى حقه(٢) : « وما ينطق عن الهوى » .

وبهذه المناسبة يجمل بنا أن نقرر أن قصة الغرانيق هذه ، قد رويت عن طريق ابن اسحاق ، شيخ رجال السيرة النبوية ، وقد أسرف فى الثناء عليه البعض ، بينما أسرف فى النيل منه البعض الآخر . على أن هذه القصة ، يقال انها جاءت عن ابن اسحاق من غير رواية البكائى(٣) واليك بعض ما يقوله ابن هشام ، الذى أهمل قصة الغرانيق كلية ، عن نهجه فى السيرة النبوية ، التى رواها عن ابن اسحاق(٤) : « وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سببا لشىء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه . لما ذكرت من الاختصار ... وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم

---

(١) الحجر ، ٩ .
(٢) النجم ، ٣ .
(٣) أنظر الروض الانف ٢/١٢٦ .
(٤) السيرة النبوية ، ١/٤ .

يقر لنا البكائى بروايته » ان اهمال ابن هشام قصة الغرانيق التى جاءت من غير رواية البكائى ، معناه عدم ايمانه بصحتها . وما موقفك من هذه الحادثة أذا علمت أن ابن اسحاق ، الذى يقال انها قد جاءت من طريقه قد أنكرها وقال حينما سئل عنها : انها من وضع الزنادقة ! اليك هذا النص من البحر المحيط لأبى حيان(١) يقول : « وهى قصة سئل عنها الامام محمد بن اسحاق جامع السيرة النبوية فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنفت فى ذلك كتابا » .

(ب) المتن :

وحينما ننظر الى صيغة الكلام ، القصير جدا ، الذى قيل انه جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم دون علم منه ، يلفت انتباهنا لأول وهلة بشأنها شيئان . **الأول** : الصيغ المختلفة لهذا الكلام . بحيث انه — على سبيل المثل — أمكن احصاء ما لا يقل عن سبع صيغ مختلفة أثناء سرد ابن جرير الطبرى فى تفسيره للحادثة(٢) أن هذا القدر من الاختلاف فى رواية صيغة الاضافة ، والذى يدل على ما وراءه من اختلافات أخر ، يقذف الى أذهاننا توا بالصيغة الواحدة للآيتين الكريمتين من سورة النجم ، اللتين ارتبطت بهما تلك الصيغ المختلفة للاضافة المدسوسة . كما يقذف الى أذهاننا أيضا بالحقيقة القائمة من كونه عز وجل قد تكفل بحفظ كتابه العزيز الى أن يرث تعالى الأرض ومن عليها . ان كل مسلم موقن فى أعماقه ، بأن القرآن الكريم ، بعد أن تم نزول آخره على المصطفى صلى الله عليه وسلم ، عاد فى ذات الصورة التى سبق أن كان عليها باللوح المحفوظ فى السماوات العلى . **والثانى:** اذا نظرنا الى الصيغ التى جاءت فيها تلك الاضافة المدسوسة ، تبينا أن بعض أجزائها يوافق شطرا من الشعر . وأحيانا توافق الصيغة بيتا من الشعر كاملا ، مثل هـذه الصيغة التى جاءت فى تفسير الطبرى(٣) .

تلك الغرانيق العلى منها الشـفاعة ترتجى

---

(١) ٣٨١/٦ .
(٢) ١٣١/١٧ — ١٣٥ .
(٣) ١٣٣/١٧ .

ولا يخفى أن هذه الصيغة من حيث الشكل ، تعارض ما عرف عنه صلى الله عليه وسلم ، من أنه لا يقول الشعر . بل لا يستقيم على لسانه البيت الواحد من الشعر(١) وقد قال عز من قائل فى سورة يس(٢) : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

فاذا تحولنا الى حديث الغرانيق من حيث المضمون ، فماذا نحن قائلون عنه أكثر من كونه يصادم أصلا من أصول العقيدة ، وهو عصمة المصطفى صلى الله عليه وسلم . يقول سيد قطب فى الظلال(٣) : « وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلا من أصول العقيدة ، وهو عصمة النبى صلى الله عليه وسلم ، من أن يدس عليه الشيطان شيئا فى تبليغ رسالته » .

مما سبق ننتهى الى أن حديث الغرانيق واه من حيث السند ومن حيث المتن .

ويبقى بعد ذلك سؤال هو : ما الذى جعل لحادثة الغرانيق كل هذه الأهمية ، رغم ضعف الأسس التى تقوم عليها ؟ والجواب على ذلك هو أنها علقت بالأذهان ، لاعتقاد البعض أنها السبب فى نزول قوله تعالى من سورة الحج(٤) خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » بقصد تسليته عليه الصلاة والسلام ، بعد أن اشتد حزنه — كما تقول الرواية — بسبب الكلمتين اللتين اجراهما الشيطان على لسانه أثناء تلاوة النجم . وبهذه المناسبة نقرر أن الرواية تسكت عن الآيات التالية المرتبطة من حيث المعنى بهذه الآية تمام الارتباط ، هذا الى قدرة هذه الآيات على توجيه الفهم وجهة طبيعية أخرى . كما أن الرواية تقول : انه قبل

---

(١) أنظر مثلا السيرة النبوية ، ٤٩٦/١ ، ٤٦٤/٢ .
(٣) آية ، ٦٩ .
(٣) ص ٢٤٣٢ .
(٤) آية ، ٥٢ .

أن تنزل آية التسلية من سورة الحج ، نزل قوله تعالى من سورة الاسراء(١) : « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »(٢) وفى دراستنا المتأملة لسورة الاسراء (تحت عنوان : تأملات فى سورة الاسراء) سبق لنا أن انتهينا بشأن هذه الآيات الكريمة الى أن فتنته صلى الله عليه وسلم عن القرآن الكريم لم تحدث مطلقا ، بسبب تثبيت الله تعالى رسوله بالقول الثابت . وما دام أن الفتنة ، وهى الأساس ، لم تحدث . فلم يحدث تبعا لذلك كل ما أشارت اليه الآيات بعد ذلك . وان دليلنا اعتمد على القرآن الكريم ذاته استنادا الى الآيتين الكريمتين التاليتين من سورة الاسراء ، واللتين يوافق اتجاه الصياغة فيهما هذه الآيات الثلاث ، وبخاصة مطلع الآيتين الذى يوافق مطلع أولى الآيات السابقة : « وان كادوا » ان الآيتين الكريمتين هنا تشيران الى أن كفار مكة كادوا يستفزونه صلى الله عليه وسلم من أرض مكة ليخرجوه منها . ولو تم ذلك الاخراج لما لبثوا خلفه فى مكة الا قليلا، لأن هذه هى سنة الله تعالى . والمعروف أن كفار مكة لبثوا فيها بعد خروج المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا . وقد أذن الله تعالى له بذلك . ولو ان كفار مكة هم الذين أخرجوا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لقطع دابر القوم الظالمين .

ان هذه النتيجة تجعلنا نقول : انه ليس من الضرورى مطلقا أن نفسر النسخ الذى أشارت اليه سورة الحج ، بأنه حذف تلك الاضافة المدسوسة . فقد تبين أن العلاقة بين الآية الكريمة وبين هذه الحادثة منبتة ، لأن الحادثة ذاتها من وضع الزنادقة ، كما صرح بذلك ابن اسحاق ، الذى تقول الرواية ان الحادثة جاءت من طريقه ! انا حينما ننظر الى هذه الآية الكريمة نظرة موضوعية ، فانا نتبين أنها تشير الى قضية مشتركة بين كل رسل الله تعالى وأنبيائه. انهم لفرط حماستهم للدعوة ، وحرصهم على ان يستجيب كل الناس لها ويعتنقوها ، وتمنيهم أن يكون الناس كلهم أمة

---

(١) آيات ، ٧٣ ــ ٧٥ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ، ١٣١/١٧ .

واحدة مسلمة لله رب العالمين ، عرضة مثلا لأن يدب اليهم اليأس فى بعض الأحايين ، على نحو قوله تعالى فى سورة يوسف(١) : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . والى أن يكون عنـــدهم ، وقتا من الأوقات ـــ لولا تثبيت الله تعالى لهم أو ارشاده اياهم للطريق الأمثل ـــ استعداد لأن يتجاوزوا الفاضل الى المفضول . ان الله تعالى يثبت هؤلاء الرسل بالقول الثابت ، ويحول بينهم وبين أن يتورطوا فيما لا يليق بهم ، على نحو ما أشارت اليه آيات سورة الاسراء . أما اذا حصل ما يجوز حصوله ، من تجاوز للفاضل الى المفضول ، فان القرآن الكريم ، يعاتبه صلى الله عليه وسلم فى ذلك . على نحو اعراض المصـــطفى صلى الله عليه وسلم عن ابن أم مكتوم واهتمامه بصناديد قريش ، فقد عوتب عليه الصلاة والسلام فى الآيات المتقدمة من سورة عبس(٢) وعلى نحو تحرجه صلى الله عليه وسلم من اعلان ما أخبره الله تعالى به من أنه عز وجل سيزوجه من زينب بنت جحش ، ابنة عمته صلى الله عليه وسلم ، بعد أن يطلقها زيد ، الذى تبناه عليه الصلاة والسلام قبل النبوة فكان يقال له : زيد بن محمد . لقد أخفى المصطفى صلى الله عليه وسلم ما أخبره به الله : « وكان كلما شكا اليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : أمسك عليك زوجك ، مراعيا فى هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد (كانوا فى الجاهليـــة يكرهون أن يتزوج المتبنى مطلقة متبناه) وظل يخفى ما قدر الله اظهاره حتى طلقها زيد.فأنزل الله فى هذا قرآنا(٣) يكشف عما جال فى خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقرر القواعد التى أراد الله أن يقوم تشريعه فى هذه المسألة عليها(٤) واليك ما يقول أبو حيان فى البحر المحيط(٥) بهذا الشأن : « وهذه الآية ، ليس فيها اسناد شىء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . انمـــا تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء اذا تمنوا . وذكر المفسرون فى

---

(١) آية ، ١١٠ .
(٢) آيات ١ ـــ ١٠ .
(٣) الاحزاب ، ٣٧ .
(٤) فى ظلال القرآن ، ٢٤٣٤ . وما بين القوسين زيادة اقتضاها السياق .
(٥) ٣٨١/٦ .

كتبهم ، ابن عطية والزمخشرى فمن قبلهما ومن بعدهما ، ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوبا الى المعصوم ، صلوات الله عليه ، وأطالوا فى ذلك وفى تقريره سؤالا وجوابا . وهى قصة سئل عنها الامام محمد بن اسحاق جامع السيرة النبوية فقال : هذا من وضع الزنادقة . وصنف فى ذلك كتابا . وقال الامام الحافظ أبو بكر احمد بن الحسين البيهقى : « هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وقال ما معناه : ان رواتها مطعون عليهم ، وليس فى الصحاح ولا فى التصانيف الحديثية شىء مما ذكروه ، فوجب اطراحه . ولذلك نزهت كتابى عن ذكره فيه . والعجب من نقل هذا وهم يتلون فى كتاب الله تعالى : « والنجم اذا هوى.ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » . وقال الله تعالى آمرا لنبيه(١) « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان أتبع الا ما يوحى الى » . وقال تعالى(٢) : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل » . الآية . وقال تعالى(٣) : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم » الآية . فالتثبيت واقع . والمقاربة منفية . وقال تعالى(٤) : « كذلك لنثبت به فؤادك » وقال تعالى(٥) : « سنقرئك فلا تنسى » وهذه نصوص تشهد بعصمته . وأما من جهة المعقول ، فلا يمكن ذلك . لأن تجويزه يطرق الى تجويزه فى جميع الأحكام والشريعة ، فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير . واستحالة ذلك معلومة » .

وهكذا يتبين أن التمنى فى الآية الكريمة يقتصر على ما حاك فى النفس.وأن النسخ معناه القضاء على مايلقى الشيطان من الأمانى ابتداء واحكام الله تعالى آياته ، كى تسير الدعوة فى الطريق الذى أراده الله تعالى لهـا مهما كان المجهود شاقا والثمن باهظا .

---

(١) يونس ، ١٥ .
(٢) الحاقة ، ٤٤ .
(٣) الاسراء ، ٧٤ .
(٤) الفرقان ، ٣٢ .
(٥) الاعلى ، ٦ .

كما يتبين أن حديث الغرانيق . لا يمت الى الحقيقة بأدنى سبب . والله تعالى أعلم . وهو الهادى الى سواء السبيل . والحمد لله رب العالمين .

الجمعة ١٢/٧/١٣٩٦ هـ
الموافق ٩ /٧/١٩٧٦ م
استراثفيلد . سدنى . استراليا

خـاتمـة

بعون من الله تعالى وتوفيقه ، انتهينا فى الصفحات السابقة من دراستا المتأملة لسورة الحاقة . وبناء على القضايا التى عالجتها السورة الكريمة ، أمكن تقسيمها الى تسعة أقسام .

وفيما يتصل بالقسم الأول الذى يتكون من ثلاث آيات:«الحاقة. ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » فان أول ما لفت انتباهنا بشأن الآيات ، اشتمال كل من الآيات الثلاث على لفظ الحاقة . وفى ضوء الحقائق المتعددة التى يمكن أن يعنيها لفظ الحاقة ، والزاوية التى نظرت خلالها آيات القسم التالى ، من كون ثمود وعاد كذبوا بالقارعة ، وهم يتفقون مع كفار مكة فى الموقف من قضية البعث فالحساب ، فقد وجدنا الميل شديدا لقبول الرأى القائل : ان معنى الحاقة ، الساعة المعطية كل ذى حق حقه ، من ثواب أو عقاب ، فى الجنة أو النار ، وفق عمله فى الحياة الدنيا ، من خير أو شر . والله تعالى أعلم .

وقد راعنا اشتمال لفظة الحاقة على المقطع الصوتى الطويل فى ثناياها . وهو عبارة عن حركة فسكونين . وبذلك يضرب عرض الحائط ، بتلك النظرية الصوتية التى تقول : ان المقطع الصوتى الطويل،يجىء فى نهاية كلام موسيقى يسكت عنده،لأن هذا المقطع يجىء فى لفظة الحاقة متوسطا بين مقطعين متوسطين ، وذلك فى حالة الوقوف بالسكون على نهاية اللفظة الحاقة ـ ٥ ـ ٥٥ ـ ٥ وهذا هو الرمز بالمقاطع ٥٩٥ كما راعنا التشابه الصوتى البعيد المدى بين الآيات الثلاث فى القسم فى أعلى الصور التى يطيقها كلام نثرى . كما راعنا مجىء لفظة الحاقة ، ذات المعنى العميق ، والوقع القوى ، مرات ثلاثا فى ثلاث آيات ، بالرغم من أنه كان بالامكان الاستغناء عنها بضمير منفصل «هى» فى كل من الآيتين الثانية والثالثة . ان مجىء لفظة الحاقة صراحة فى هاتين الآيتين الأخيرتين ،

مع امكان مجيء الضمير ، خاصة مع الاستفهام الذى يثير اهتمام السامع ويجعله طرفا مشاركا فى القضية مشاركة ايجابية،مما يشد الانتباه شدا اكبر واعمق اثرا . والمعروف أن هذين السؤالين يراد بهما تفخيم شأن يوم القيامة ، لأنه ليس مما يدركه خيال أو يحيط به تصور . فصيغة « ما أدراك » فى القرآن الكريم ، خطابا له صلى الله عليه وسلم ، كأنه يراد بها : انك لست تعلم الساعة على حقيقتها مالم تعاينها . واذا كان هذا حال خير خلق الله تعالى كلهم، فكيف بسائر البشر ؟

وفيما يتصل بالقسم الثانى الذى يتكون من خمس آيات ، فانه يؤكد الانطباع الذى يحصل عليه المتأمل للقسم الأول من كون البعث وضرورة العمل من أجله ، نقطة من أهم نقاط الخلاف بين الرسول الكريم وبين قومه المكذبين . فهذا القسم يشير الى تكذيب ثمود وعاد بالقارعة ، أى يوم القيامة . وقد لفت انتباهنا استعمال لفظ القارعة دليلا على يوم القيامة ، الذى استعمل بشأنه فى القسم الأول لفظ الحاقة . وهذا التنويع دليل على مراعاة الصفات المختلفة لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود فاذا كان الحق قد ارتبط بلفظ الحاقة ، فان القرع ، بمعنى الضرب الشديد المفاجىء ، هو الذى يرتبط بالقارعة . وقد ذهب جمهور العلماء الى أن من متعلقات يوم القيامة أنه يقرع القلوب والنفوس بأهواله ، ولذلك أطلق لفظ القارعة فى حقه .

وقد لفت انتباهنا بشأن الآية الكريمة الأولى التى تتكون من اربعة ألفاظ ، التجانس صوتيا بين اللفظة الأولى والثانية . وبين اللفظة الثالثة والرابعة : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » فبما أن عادا تجانس القارعة صوتيا ، لذا تأخرت فى الذكر ، كى تجانس الفاصلة صوتيا ، وتقدمت ثمود ، رغم تأخرها زمنا عن عاد . وقد كان لتقديم ثمود وتأخير عاد دوره فى ترتيب عذاب الدنيا وفق ترتيب ثمود وعاد فى الذكر ، فقد تقدم نصيب ثمود من العذاب على نصيب عاد ، ودوره فى ترتيب الأمم التى أهلكها الله تعالى جزاء طغيانها والتى أشارت اليها السورة بعد ذلك . لقد كان السياق يتحول باستمرار من المتأخرين زمنا الى المتقدمين . وان

تعيين الآية الكريمة الثالثة لوسيلة اهلاك عاد قوم هود ، نبه الى أن الآية الكريمة السابقة ، تريد أن تعين وسيلة اهلاك القوم ، وليس سبب الاهـلاك الذى سبق أن أشار اليه قوله تعـالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » . وقد تبين استنادا على آيات قرآنية أن المراد بالطاغية ، بشأن ثمود ، هى الصيحة الواحدة . جاء فى سورة القمر بشأن ثمود قوله تعالى : « انا أرسلنا عليهم صيحـة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . » وأن وسيلة العقاب بشأن ثمود وعاد ، من حيث الطبيعة ، قصرا أو طولا ، لهـا دورها فى قصر الحديث عن العذاب وطوله . فاذا كانت وسيلة اهلاك ثمود خاطفة ، وكان الحديث عنها فى آية واحدة تميل الى القصر الملحوظ ، فان وسيلة اهلاك عاد ، التى امتدت سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، استدعت أن يكون الحديث المصور لاهـلاك القوم ، مائلا الى الطول النسبى .

ومما لفت انتباهنا بشأن الآية الكريمة : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » أن لفظة « ريح » جاءت مفردة . وكذلك ريح العذاب . أما ريح الرحمة ، فانها تجىء فى صيغة الجمع . وقد نبهت المقارنة الى أن الاختلاف بين التعبيرين ، يرتبط أساسا بعلم العرب الذين يعتمدون على الغيث ، بأن السحاب لا يلقح الا من رياح مختلفة . ومما لفت انتباهنا لفظة صرصر ذات الجرس الموحى بنوع من الأصوات . وقد تبين أنها تدل من ناحية على أشد الصوت والصياح الممتدين المرددين ، ومن ناحية أخرى على شـديد البرد جدا . ففهم من ذلك أن الريح الصرصر هى الريح الشديدة البرد الشديدة الصوت مستمرتهما ، وقد سلطها عز وجل على عاد قوم هود ، سبع ليال وثمانية أيام حسوما .

وقد وقفنا مليا بشأن عاد عند لفظة حسوما ، التى يتعلق بهـا مجموعة من المعانى . فالليالى السبع والأيام الثمانية ، يمكن أن يراد منها أنها قطعت دابر القوم الذين ظلموا . فاللفظة اذن من الحسم بمعنى القطع . ويمكن أن يراد أنها متتابعات . فالليالى اذن والأيام غير منقطعات بل مستمرات . ويمكن أن يراد أنهـا مشائيم . فاللفظة اذن بمعنى الشؤم . وحينما بحثنا من جانبنا من

أولى الزوايا بأن يعنيها السياق فى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » تبينا أنها زاوية تتابع العذاب ، التى رجحها جمهور العلماء ، لأن تتابع العذاب يحقق هدفا من أهم أهدافه ، وهو كونه عنيفا .

ومما روعى بشأن هذا القسم — وكل أقسام السورة ، وفى هذه اللمحة الخاطفة غناء عن الافاضة فى الخاتمة بشأن مراعاة هذه الظاهرة فى الأقسام التالية — طبيعة اللغة الاشتقاقية ، ومحاولة الافادة من المعنى المشترك بين الألفاظ المشتقة من الأصل اللغوى الواحد. ومن أكثر الألفاظ فى هذا القسم اشعاعا لفظة اعجاز فى قوله تعالى: عن عاد: «كأنهم أعجاز نخل خاوية» ان التعاون، صوتيا ومعنويا قوى للغاية . فيما يتصل بالجانب المعنوى هى تتمشى مع السياق بأكثر من لفظة أجذاع مثلا ، الموافقة صوتيا . لأن المعنى المشترك لمادة « عجز » يرتبط بالعجز وقلة الحيلة . بينما المعنى المشترك لمادة « جذع » يرتبط بصغر السن واقتبال العمر . ولا شك أن لفظة « أعجاز » هى التى تؤدى المعنى المطلوب . وهى خير مهيىء للفظة « خاوية » بعدها وللآية الأخيرة فى القسم « فهل ترى لهم من باقية » ؟

وفيما يتصل بالقسم الثالث الذى يتكون من آيتين كريمتين ، ويتحدث عن فرعون ومن قبله والمؤتفكات الذين كفروا بربهم وعصوا رسول الله تعالى اليهم . فقد كانت أخذتهم رابية ، موافقة لخطئهم الكبير الذى تعمدوا ارتكابه . وان جملة « جاء » فى الآية الكريمة : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » حملتنا على أن نقف مليا عندها هى ، وعند الجملة الأخرى صنوها « أتى » للعلاقة المعنوية بين هاتين الجملتين من ناحية ، ولأدوارها المهمة واستعمالاتهما — هما ومشتقاتهما العجيبة فى القرآن الكريم . والحقيقة أن وقوفنا عند استعمال هاتين الجملتين فى القرآن الكريم كان طويلا . وقد انتهينا الى نتيجة مهمة مفادها أن جملة « جاء » ومتعلقاتها لا تستعمل فى القرآن الكريم الا دليلا على القرب سواء أكان مكانيا أم زمانيا أم نفسيا . وأن جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم الا دليلا على البعد ، سواء أكان زمانيا أم مكانيا أم نفسيا . وفى ضوء ذلك تبين أن استعمال جملة جاء فى الآية الكريمة

يفيد أن تلك الفعلة الخاطئة أو الفعلات ، التى صاحبت فرعون ومن شاكله ، والتى قاموا بها عن عمد وسابق اصرار ، كانت قريبة من أفئـــدتهم كل القرب ، بحيث انهـــا لم تدع لسواها من خـــير موضـــعا .

وقد كان لمراعاة السياق وجهته الزمنية الواحدة ، أعنى الاتجاه من الزمن المتأخر الى المتقدم ، دور فى ترجيح القراءة « ومن قبله » بفتح القاف ، أى ومن سبق فرعون ، على القراءة الأخرى « ومن قبله » بكسرها ، أى ومن عنده أو من عاصره .

وفيما يتصل بالقسم الرابع الذى يتكون من آيتين كريمتين ، ويتحدث عن اهلاك الله تعالى قوم نوح عليه السلام ، فقد لوحظ انه يراعى الاتجاه الزمنى الواحد حيث الماضى ، لأن نوحا عليه السلام ، أول رسل الله تعالى ، كما لوحظ انه يتحدث من زاوية انعام الله تعالى على البشر ، وهم سلالة اولئك الناجين ، وذلك بانقاذهم من الطوفان ، بأكثر من زاوية الاغراق . فعلى كفار مكة فى المقام الأول، أن يقدروا هذه النعمة حق قدرها بعبادته عز وجل وحده لا شريك له . ولوحظ أيضا أن فى الآيتين الكريمتين جنوحا لاستعمال ضمير المخاطبين ، ولا يخرج الذين يوجه اليهم الخطاب عن دائرة الذين يستحقون الثواب أو العقاب . أما المؤمنون فمن حقهم أن يفهموا انهم يستحقون بمن من الله تعالى وفضل ، نصيبهم من الثواب فى الدنيا والآخرة . لأنهم الصابرون والشكورون . وأما المجرمون فمن واجبهم أن يفهموا أنهم يستحقون كفلهم من العذاب فى الدنيا والآخرة ، لأنهم الختارون الكفورون .

وقد راعنا من الوجهة المعنوية بشأن الآيتين الكريمتـــين . ان لكل منهما نقطتى ارتكاز ، يتجهان فى الأولى حيث الارتفاع المطرد . « انا لمـــا طغا الماء حملناكم فى الجارية » ويتجهان فى الثانية حيث العمق المطرد « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » أما الارتفاع المطرد فتفسيره ان الماء قد طغا فهلك الطغاة . أما المتقون فقد كانوا فى الجارية فوق ذلك الماء الطاغى . فللارتفاع المطرد نقطتا ارتكاز ، هما طغيان الماء فالحمل فوقه . وأما العمق المطرد فتفسيره أن نعمة حمل

المؤمنين فى الجـــارية وقت الطوفان . ينبغى أن يتذكرهـــا الخلق أجمعون ، وهذه هى نقطة ارتكاز العمق الأولى . وأن يأخـــذوا العظة والعبرة منها ، وهذه هى نقطة ارتكاز العمق الثانية .

وقد راعنا من الوجهة الصوتية بشأن الآيتين الكريمتين أنهمـــا مجانستان لطبيعة الارتفاع المطرد والعمق المطرد . أما آية الارتفاع المطرد فيكثر فيها حرف الألف ، بحيث انه لا تكاد تخلو وحدة صوتية واحدة فى الآية الكريمة من حرف المد هذا . لذا ينبغى أن يستمر الصوت فى ارتفاعه دائما . وأما آية العمق المطرد ، فيكثر فيها الحروف المتحركة كثرة ملحوظة . لذا يحمـــل المرتل على الأنشاد حمـــلا .

وفيما يتصل بالقسم الخامس الذى يتكون من ست آيات ، فانه يبدأ بالحديث عن النفخة الواحدة . ويتحدث عن عدد من ملابسات يوم القيامة . واذا كنا نرى رأى جمهور العلماء بأن المراد بالنفحة فى قوله تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » هى النفخـــة الأولى . فالملاحظ أن هذا القسم ، يتسع فيشمل يوم القيامة بكل ملابساته ابتداء من النفخة الأولى التى تميت بارادة الله تعـــالى الخلائق ، الا من شاء ربك ، وانتهاء بالحساب ، فالثواب أو العقاب.

وفيما يتصل بالقسم السادس الذى يشتمل على تسع عشرة آية فانه يتكون من شقين ، يتحـــدث أولهمـــا فى ست آيات عن حال المتقين يـــوم القيـــامة وثـــوابهم . ويتحـــدث ثانيهمـــا عن حال المجرمين وعقابهم . وقد تحدثنـــا عن هذين الشـــقين من زاويـــة التلاؤم الصوتى بينهما وزواية المعنى . فبما أن الملابسات فى الشق الثانى بشأن المجرم مختلفة ، مما انعكس فى اضطراباته النفسية ، فقد استتبع ذلك ، ولأول مرة فى السورة الكريمة ، أن تتغير نغمة الفاصلة فى السورة ، ليس مرة واحدة فى حقه ، بل مرتين . مما هيأ لاستمرار تغير الفاصـــلة حتى نهاية الســـورة . وقد نص السياق على أهم سببين استدعيا أخذ الملائكة الغلاظ الشداد للمجرم وادخاله النار وسلكه فى سلسة ذرعها سبعون ذراعا . وهذان السببان هما الاشراك مع الله تعالى غيره ، ومنع المسكين طعامه . وقد ترتب على ذكر أهم سببين ، ذكر أهم نوعين من العقاب .

وفيما يتصل بالقسم السابع الذى يتكون من ست آيات ، فانه يتحدث عن القرآن الكريم ، كلام رب العالمين . فليس هو بكلام شاعر ، وليس بكلام كاهن . لأن القرآن الكريم حق كله : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » ومما راعنا بشأن الآيات الثلاث الأول : « فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم » أن الآية الثالثة ، بمثابة التطبيق للآيتين الأوليين . فهذا الرسول الكريم من الملائكة ، الذى تشير اليه الآية الثالثة ، يبصره أثناء نزوله بالقرآن الكريم ، المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا يبصره الآخرون .

وقد حاولنا تبيين العلاقة الصوتية والمعنوية بين الآيتين الكريمتين: « وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون » ومن أهم ما أمكن أن يقال من الوجهة المعنوية انه لا يمكن بحال من الأحوال وضع جملة : « قليلا ما تؤمنون» مكان « قليلا ما تذكرون » بل أن جملة تذكرون ، الأكثر عدد حروف من « تؤمنون » تحدث التوازن بين الآيتين الكريمتين ، حيث ان الآية الأولى يزيد شقها الأول باسم الضمير المنفصل « هو' » أما الآية الأخيرة « تنزيل من رب العالمين » فانها تعين المصدر الحقيقى للقرآن الكريم . انه كلام رب العالمين . نزل به رسول من الملائكة كريم على رسول من البشر كريم .

وفيما يتصل بالقسم الثامن ، الذى يتكون من أربع آيات ، فانه يؤكد فحوى القسم السابق من كون القرآن الكريم كلام رب العالمين، ويرد على الكافرين الذين يتهمون الرسول الكريم بأنه تقول على الله تعالى ما لم يقله . وينظم هذا القسم فى قرن بين مجموعة من الممتنعات . فالمعروف أن لو ، الذى يبدأ به أولى آيات القسم ، هو حرف امتناع لامتناع ، امتناع المسبب لامتناع السبب ، أو امتناع الجزاء لامتناع الشرط . ومن ألطف ما يمكن التنبيه اليه ازاء هذه الممتنعات ، قوله تعالى : « فما منكم من أحد عنه حاجزين » الذى يشير الى واحد من أهم هذه الممتنعات عقلا ، بأن يتحول كفار مكة ، وهم أشد الناس اتهاما للرسول الكريم بأنه تقول القرآن الحكيم، الى أشد الناس مودة له صلى الله عليه وسلم ودفاعا مستميتا عنه ! ان الجمع بين هذا الممتنع عقلا وبين الممتنعين الاثنين السابقين ، من مظاهر اعجاز الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه . قال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ».

وفيما يتصل بالقسم التاسع الذى يتكون من خمس آيات ، فانه يتحدث عن الموقفين الطبيعيين لقوم كل رسول . المؤمنين المتقين ، والكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى . انه يقرر هذا الواقع . وبما أن المكذبين الكافرين ، قبل الهجرة ، أكثر عددا وعدة ، لذا كان الحديث فى الآيات الخمس موجها للمكذبين الكافرين بأكثر منه للمتقين . وقد بين هذا القسم حقيقة كون هذا القرآن الكريم حق اليقين . وختمت السورة برسم طريق الفلاح للعباد بأن يسبحوا باسم ربهم العظيم،الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وبهذه الآية الكريمة الخاتمة ، يتضح أن من أهم أهداف القرآن الكريم ، المكى منه بخاصة ، ارساء أسس العقيدة ، وعمادها افراد الله تعالى بالعبادة : « فسبح باسم ربك العظيم » .

وبما أن من أهم الموضوعات التى عرضت لها السورة الكريمة ، كون القرآن الكريم نقيا من اية شائبة ، نائيا عن اى تحريف، فهكذا شاءت ارادة الله تعالى الذى تكفل بحفظ كتابه العزيز وقال فى محكم كتابه : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وبما أن هذا الحفظ الذى نوهت به سورة الحاقة الكريمة ، لا يتمشى معه بحال من الأحوال كل التهم التى تقول بغير ذلك لأنها تصطدم كلها بالنص القرآنى الذى يقول بتكفل رب العزة بحفظ الكتاب العزيز الى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها ، وبما أن فرية الفرانيق احدى هذه التهم التى ترد عليها هذه السورة الكريمة وتدحضها ، لذلك ارتأت دراستنا المتأملة لسورة الحاقة المكية بتبيين الرأى فى هذه الفرية ، فرية الفرانيق التى تصطدم بالنص القرآنى وبعصمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

والحمد لله رب العالمين ...

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

ابن كثير ، عماد الدين أبو الندا ، اسماعيل بن كثير . تفسير ابن كثير . .

بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . لسان العرب.

بيروت ١٩٥٥م ١٣٧٤هـ .

ابن هشام . السيرة النبوية حلبى . الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م .

أبو حيان ، محمد بن يوسف بن على بن يوسف . البحر المحيط. بيروت بدون تاريخ .

باجودة ، حسن محمد . تأملات فى سورة يس . الطبعة الأولى . القاهرة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م والثالثة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر . الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون . حلبى . ١٩٣٨ — ١٩٤٧ م .

الجلالين ، جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى ، تفسير الجلالين .

الزمخشرى ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر . الكشاف . مصطفى البابى الحلبى . ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

السهيلى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلى الروض الأنف . مصر ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

السيوطى ، جلال الدين . الاتقان فى علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

طبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى . تفسير الطبرى جامع البيان فى أحكام القرآن الطبعة الأولى . بولاق . ١٣٢٩هـ

الفيروزابادى . القاموس المحيط .

القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى . تفسير القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب بمصر .

قطب سيد . فى ظلال القرآن . الطبعة المشروعة الثانية ١٣٩٥هـ ـــ ١٩٧٥م دار الشروق .

مسلم . الصحيح . شرح الامام النووى مصر ١٣٤٩ هـ .

محتويات الكتـــاب

الموضـــــوع	الصفحة
المقـــدمة	٣
توطئـــة	٩
الدراسة المتأملة لسورة الحاقة	١٧
القسم الأول	١٩
القسم الثانى	٢٧
القسم الثالث	٤٧
القسم الرابع	٦٣
القسم الخامس	٧٣
القسم السادس	٨٧
القسم السابع	١١٧
القسم الثامن	١٢٧
القسم التاسع	١٣٣
رأى فى قصة الغدانيق	١٣٩
خاتمـــة	٤٦
فهرست المصادر والمراجع	١٥٧